رواية

الحبيب السالمي

بكارة

الحبيب السالمي

بكارة

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة©

يجلسان متقاربين. لا تفصل بينهما سوى بضعة أشبار.

منذ أن وصلا إلى المكان لم ينطقا بكلمة واحدة. بين الحين والآخر، يحرّك أحدهما رأسه أو يميل قليلاً ويختلس النظر إلى الآخر كما لو أنّه يريد أن يتأكّد من أنّه لا يزال جالسًا بالقرب منه. الشمس لم تطلع بعد، إلاّ أنّ ضوء الفجر كان كافيًا كي يرسلا بصريهما إلى حيث تقوم شجرة الخرُّوب في طرف الحقل الواسع الذي يجلسان بالقرب من سياجه للاحتماء من الريح الباردة القادمة من الغرب.

وإذا لم يتكلّما، فليس لأنّهما لا يرغبان في الكلام أو لأنْ لا شيء لديهما يقولانه هذه المرّة. بالعكس، ثمّة أمور كثيرة يمكن الخوض فيها، وأهمّها أخبار الثورة التي امتدّت حتى إلى ذلك الدوار النائي. لم يتكلّما، لأنّ ما تناهى إلى سمعيهما البارحة أوقعهما في حالة من الذهول؛ ويبدو لهما مثل ذلك الوقت المبكر، وهما قابعان في صمت داخل حقل خال بعيدًا عن بيوت الدوار، أخطر وأسوأ ما يمكن أن يحدث لصداقتهما الطويلة.

وما سمعاه هو أنّ رجالاً في الحانوت، الذي يتردّد عليه الكثير من سكّان الدوّار والدواوير المجاورة، يزعمون أنّ مصطفى الذي اختاره البشير «وزيرًا» له ليلة الدخلة على زوجته مبروكة هو الذي فعل لها ما يفعله العريس لعروسه في هذه الليلة.

نعم. يقولون إنّ مصطفى هو الذي باشر مبروكة حين لاحظ أنّ صديقه عجز عن أداء واجبه بعد محاولات كثيرة!

يقولون إنّ البشير رفض ذلك رفضًا قاطعًا في البداية مفضّلاً أن يقتل نفسه على أن يترك عروسه لرجل آخر، حتى وإن كان عزيزًا عليه مثل مصطفى. ولكنّه قبل الفكرة على مضض فيما بعد. لا لأنّه اقتنع بها وإنّما درءًا للفضيحة التي ستلوّث بالتأكيد عرض أهل العروس المرابطين حول البيت لو لم يخرج لهم في تلك اللحظات الحرجة قميص مبروكة وعليه لطخة من دمها واضحة وكبيرة بما فيه الكفاية لكي يراها الجميع. يقولون إنّ البشير تهالك على الأرض ودفن رأسه بين ذراعيه، وأخذ يبكي مثل طفل في اللحظة التي اقترب مصطفى من مبروكة.

الحقيقة أنّ ما أزعجهما ليس هذا الكلام الفارغ الذي لا أساس له من الصحّة بالطبع ولا يصدّقه أيّ عاقل في هذه الدنيا، وإنّما سبب آخر. فقد ذكّرهما هذا الكلام بشيء حاول كلٌّ منهما أن ينساه إلى الأبد. شيء

يعتبرانه سرَّهما الأكبر. وهو أنَّ مصطفى رأى من مبروكة ليلة الدخلة ما لا يحلّ له أن يراه.

حدث ذلك صدفة بالطبع. كان البشير خائفًا ليلة الدخلة. كان يخشى أن يفشل في مهمَّته، فهو لا يعرف شيئًا عن عالم النساء سوى ما يسمعه من الحكايات التي يردِّدها المتزوِّجون. والمرَّة الوحيدة التي ذاق فيها الأنثى كانت خلال زيارته الأولى إلى القيروان بعد بلوغه. وقد تمَّ ذلك في الماخور مع مومس في عمر أمِّه. كان الطريق مفتوحًا بالطبع وواسعًا جدًّا إلى درجة أنَّه لم يشعر بأيّ شيء يعترضه وهو يدخلها.

لم يتمكَّن البشير من مباشرة مبروكة بعد عدَّة محاولات، فتفاقم خوفه. لجأ على الفور إلى «وزيره» الذي كان مختبئًا في الممشى المظلم خلف باب غرفة العروسين على أتمّ استعداد للتدخُّل إذا اقتضى الأمر. همس له مصطفى من مخبئه بنصائح كثيرة. ولمَّا رأى بعد لحظات أنَّ كلّ ذلك لم ينفع، قرَّر أن يدخل الغرفة ويشرف بنفسه على العمليَّة تجنُّبًا للفضيحة، وهو أمر مسموح له به كـ «وزير»، بل واجب لا بدَّ من أدائه في مثل هذه الحالات الخطرة.

كانت مبروكة مستلقية على ظهرها على الحصير. أحكم وضع الوسادة تحت خصرها وهو ينظر إلى السقف ليتحاشى النظر إليها. أمرها بأن ترفع نصفها السفلي قليلاً وأن تفتح ساقيها قدر الإمكان، وتتوقَّف عن الحركة. ثم طلب من البشير الذي كان عاريًا كالدودة أن يداعب آلته برقَّة وهدوء بعد أن يضع عليها قليلاً من رغوة الصابون. وعندما تستوي تمامًا وتصير صلبة كالوتد يولج رأسها في أنوثة عروسه ويتوكَّل على الله. يضغط بكلّ ما لديه من قوَّة. لا يفكِّر في أيّ شيء، ولا يبالي بأيّ شيء. وخصوصًا لا يعبأ بما سيسبِّبه لمبروكة من أوجاع، لأنَّ العمليَّة لن تدوم بحول الله سوى دقيقة واحدة وربَّما أقلّ.

وفي اللحظة التي استدار للخروج من الغرفة والعودة إلى مخبئه في الممشى، زلَّت قدمه على طرف الحصير. حاول أن يظلّ واقفًا، لكنَّه فقد توازنه وسقط على الأرض. ولمَّا رفع رأسه لينهض، وجد نفسه بين ساقي مبروكة المفتوحتين، والأخطر من ذلك وجهًا لوجه أمام أنوثتها. وهكذا، رأى ما لا يحلّ له أن يراه. كان من المستحيل أن يتحاشى ذلك، فقد كان قريبًا جدًّا منها حتى إنَّه حمد الله في سرِّه على أنَّه تلطَّف به فأوقف الأمر عند هذا الحدّ!

لقد مضى زمن طويل على ليلة الدخلة. لم يتكلَّما خلاله أبدًا عمَّا

حدث فيها. تصرَّفا كما لو أنَّ شيئًا لم يكن. صحيح أنَّ قليلاً من البرود والنفور أصاب علاقتهما في الأيَّام الأولى التي أعقبت الواقعة، لكنَّهما نجحا في تجاوز ذلك. كان واضحًا أنَّ العريس و«وزيره» صمَّما في وقت واحد كما لو أنَّهما كانا على اتِّفاق على طي صفحة تلك الليلة المشؤومة.

كان البشير يعتبر نفسه المتضرِّر الوحيد ممَّا حصل، إذ إنَّ مبروكة لا تخطر بباله حين يفكِّر في الأمر. وبالرَّغم من ذلك، فإنَّه قرَّر أن يتَّخذ هذا القرار الصعب. والسبب هو اعترافه بالجميل لصديقه الذي بذل مجهودًا هائلاً لمساعدته ليلة الدخلة. ولولاه لكانت الفضيحة. ثم إنَّ ما حدث كان محض صدفة. وهو لا يشكّ لحظة واحدة في نزاهة مصطفى وحسن أخلاقه ووفائه له. لقد راقبه عندما كان معهما في الغرفة؛ وطوال الوقت الذي أمضاه هناك لم يلق نظرة واحدة على مبروكة. لم يستغلّ أبدًا الموقف كما يُشاع عن «الوزراء» الآخرين. كان ينظر إلى السقف وهو يقدِّم لها النصائح، ويعدُّها له لتكون في أفضل وضعيَّة. وربَّما لهذا السبب، زلَّت قدمه وحدث ما حدث.

ثمَّة سبب آخر دفعه إلى اتِّخاذ هذا القرار، وهو أنَّ شيئًا ما في أعماقه يقول له إنَّ مصطفى قد لا يكون رأى حقًّا وبوضوح كافٍ أنوثة مبروكة، إذ إنَّ الحادثة لم تدم أكثر من رمشة عين، وهو قد فوجئ بها. ثم إنَّ الضوء كان خافتًا، ومبروكة كانت مستلقية في أبعد أركان الغرفة عن مكان المصباح. من المحقَّق أنَّه رأى ساقيها مفتوحتين. من المؤكَّد أيضًا أنَّه رأى ما يحيط بأنوثتها. وهذا شيء كثير على أيِّ حال. لكنْ من المستبعد أن يكون قد شاهد بما يكفي من الوضوح أنوثتها، أو على الأقلّ ما هو أساسي فيها. كانا يتصوَّران أنَّ الزمن سيتكفَّل بالأمر، ويمحو شيئًا فشيئًا هذه الواقعة من ذاكرتيهما أو يحوِّلها إلى مجرَّد ذكرى باهتة.

لكنَّهما كانا مخطئين في تصوُّرهما. فها هي تعود إليهما ومن خلال حكاية غريبة ومؤلمة في آن واحد، وإن كان من الصعب أن يصدِّقها أحد إلاَّ الحسَّاد والمولعون بما يروِّج من الحكايات والإشاعات التي تكاثرت في الحانوت بعد الثورة. والأخطر من ذلك، ها هي تحرِّك فيهما أحاسيس كانا يعتقدان أنَّها لن تنتابهما أبدًا. البشير حزين ومتوتِّر. ومصطفى مرتبك ومنفعل، ويشعر بمزيج من الحرج والخجل.

إلاَّ أنَّ السؤال الذي لا يريد أن يفارق ذهن البشير منذ أن سمع هذه الحكاية العجيبة هو كيف عرف الناس أنَّه وجد صعوبات في مباشرة مبروكة؟ صحيح أنَّه أبطأ قليلاً في القيام بواجبه ليلة الدخلة، لكنَّ كلّ

شيء كان على ما يرام في النهاية. فقد أخرج مصطفى قميص مبروكة الملطّخ بدمها، وشاهده أهلها، فتعالت الزغاريد وظلّت تولول لوقت طويل وسط صمت الليل. ومن المؤكّد أنّ كلّ الناس في الدوّار وحتى في الدواوير المجاورة قد سمعوها جيّدًا.

وما يزيد في حزنه هو أنّ السؤال يؤدّي كلّما طرحه على نفسه إلى جواب واحد. جواب لا يتغيّر كيفما قلّب الأمر، ويرغمه على قبول ما لا يريد قبوله، وهو أنّ مصطفى وراء ذلك، فلا أحد غيره يعرف أنّه تأخّر قليلاً في أداء واجبه. صحيح أنّ مبروكة هي أيضًا تعرف. وربّما أخبرت أمّها بذلك. ولكن من المستحيل أن تجرؤ على إفشاء هذا السرّ، فزوجته تحبّه مثلما تحبّ أيّة زوجة زوجها، والأهمّ من ذلك تخشاه. أمّا أمّها منوبيّة، فهي تقدّره رغم ما اشتهرت به من حبّ للخصومات والمعارك وعدم خوفها من الرجال بمن فيهم زوجها حامد.

نعم. مصطفى، الذي يحبّه مثلما يحبّ الأخ أخاه، هو الذي كان وراء ذلك. ولكنّ هناك أمورًا كثيرة تحيّره. لماذا فعل ذلك؟ ثم لماذا الآن؟ وكيف؟ لا شيء تغيّر في علاقتهما المتينة، بل يمكن القول إنّها ازدادت عمقًا في الأعوام الأخيرة. هل بدأ يفقد السيطرة على نفسه ويخرف؟ ولكن كيف يخرف وهو مثله في الخمسين من عمره بحسب شهادتي الميلاد اللتين أعدّتهما لهما الحكومة بعد مرور أعوام كثيرة على ولادتهما، اعتمادًا على ما يقوله أصحاب الذاكرة القويّة من شيوخ الدوّار وعجائزه؟ وبالطبع، من المستبعد جدًا بل من المستحيل أن يكون قد أُصيب هو أيضًا بحمّى ترويج الإشاعات التي ظهرت بعد الثورة.

قد يكون أفشى السرّ عن غير قصد. وربّما روى قليلاً ممّا حدث في تلك الليلة اللعينة إلى زوجته محبوبة في لحظة ضعف أو تودّد لها. ولعلّه اكتفى بالتلميح إلى ذلك. النساء يفهمن في أمور الجنس من رمشة عين. لا شكّ أنّ زوجته تحبّ مثل أغلب النساء الحكايات، خصوصًا إن كانت من هذا النوع. وربّما روت في البئر ما تكون قد سمعته من زوجها أو فهمته أو استنتجته من كلامه. وهكذا، انتشرت الحكاية بعد أن أضيف إليها شيء من هنا وشيء من هناك، حتى صارت ما يردّده السفلة والأوباش الآن في الحانوت.

ولكن ماذا لو كان قد فعل ذلك عمدًا؟ ماذا لو روى ما حصل في تلك الليلة لشخص آخر غير زوجته وهو يمتلك كلّ قواه العقليّة ويُدرك تمامًا خطورة ما يفعل؟ وبالطبع، لم يفعل هذا ليسيء إليه أو يشوّه سمعته كما

يفعل الذين يحسدونه على ثروته التي تنامت بشكل لافت في الأعوام الأخيرة. فعل ذلك لمجرّد التباهي. فابن آدم يميل بطبعه إلى الافتخار والزهو والإعجاب بالنفس.

لعلّه أراد أن يفتخر بأنّه رجل فحل يستعين به الرجال لحلّ ما يعترضهم من مشاكل في مثل هذه الأمور الحسّاسة. وهذا ليس صحيحًا تمامًا على كلّ حال، فمصطفى نفسه واجه صعوبات في مباشرة محبوبة ليلة الدخلة. وقد اعترف له بذلك بعد أن أعلمه بأنّه اختاره «وزيرًا» له. لكنّ هذه الصعوبات كانت على ما يبدو أقلّ بكثير من تلك التي واجهها هو. لعلّه أراد أيضًا أن يتباهى بأنّه يعرف هو الفقير الذي لا تأثير ولا سلطة له في الدوّار أشياء مهمّة لا يعرفها غيره، وأنّ هناك بينه وبين الأغنياء أسرارًا خطيرة.

تتملّك البشير رغبة قويّة في أن يستدير فجأة نحو مصطفى ويركّز بصره عليه، ثم يطرح عليه بصوت واضح ودون أيّ تردّد هذه الأسئلة التي لا تتوقّف عن تعذيبه.. نعم. يقذفه بكلّ هذه الأسئلة دفعة واحدة، لكي لا يترك له أيّة فرصة للكذب أو المراوغة أو الإفلات من قبضته. أريد أجوبة دقيقة.. آ سي مصطفى.. الآن.. وبسرعة.. قل لي: لماذا فعلت كلّ هذا؟.. هل فسد عقلك؟.. هل هبلت؟.. كيف تفضحني؟.. وما العيب في ألاّ يفتح الرجل امرأته من الضربة الأولى؟ ما العيب في أن يتباطأ قليلاً؟.. أنت تعرف النساء أكثر منّي.. الله سبحانه وتعالى خلقهنّ هكذا.. بدن الأنثى ليس مثل أبداننا نحن الرجال، وأنوثتها مخبّأة وغير بارزة.. مثل ذكورة الرجل.. والذي يتعاطى معها أوّل مرّة يخاف، خصوصًا إن كان هناك من ينتظره في الخارج كما في ليلة الدخلة!

ثم أنت.. نعم، أنت نفسك.. لم تعالج امرأتك من الضربة الأولى.. فلماذا إذن فضحتني؟.. آ سي مصطفى.. لماذا قدّمت للحسّاد أبناء الكلب هذه الهديّة القيّمة ليبنوا من الحبّة قبّة، ويخترعوا هذه الحكاية العجيبة التي يروونها الآن بمتعة وبشماتة في الحانوت؟

ينتبه إلى أنّه تحمّس أكثر من اللازم، واستسلم كثيرًا لأحاسيسه. المسألة خطيرة. ولا بدّ أن تعالج بأعصاب باردة. عليه أن يستعيد هدوءه كي لا يبدر منه ما لا يرضاه لنفسه وما قد يندم عليه فيما بعد. ينبغي أيضًا أن يفكّر طويلاً قبل أن يقدم على أيّة خطوة، فليس هناك في مثل هذه الحالات ما هو أسوأ من التسرّع الذي يؤدّي في معظم الأحيان إلى ارتكاب أخطاء تزيد الأمر تعقيدًا.

وهناك شيء آخر يحول دون تحقيق رغبته القويّة في طرح هذه الأسئلة على مصطفى، وهو الحياء. يُدرك شيئًا فشيئًا أنّه لا يمتلك في هذا الصباح ما يكفي من الجرأة للقيام بذلك. لم يكن يتصوَّر إطلاقًا أنّ إحساسًا كهذا سينتابه. والأغرب من ذلك، لم يكن يتخيَّل أنّه سيجد صعوبة ما في طرح هذه الأسئلة على صديق يعرف عنه كلَّ شيء بما في ذلك أموره الحميميّة. لا بدَّ أنّ الصدمة التي أحدثها ما تناهى إلى سمعه البارحة قد تركت في نفسه أثرًا أقوى ممَّا كان يظنّ. وربَّما يعود ذلك أيضًا إلى أنّ الوقت لا يزال باكرًا ولا يشجِّع على الخوض في مثل هذه المسائل.

لن يطرح عليه إذن أيّ سؤال الآن. سيرجئ ذلك إلى وقت آخر. غدًا. أو بعد غد. إنّه لا يخشى شيئًا.. فمصطفى لن يهرب. وهو يلتقيه كلَّ يوم تقريبًا. وحتى إن تغيَّب، فهو يعرف بيته وكلَّ الأمكنة التي يؤمّها طوال اليوم. ليغلق فمه الآن، وليحاول أن يخفِّف من وطأة هذا الحزن الذي يسيطر عليه.

يتطلَّع إلى الحقل الذي يمتدّ أمامهما. الشمس توشك الآن على الطلوع. والضوء ازداد كثافة إلى درجة أنّه صار باستطاعته أن يرى بوضوح أغصان شجرة الخرُّوب التي تحرّكها الريح الباردة. بعد لحظات، يميل قليلاً صوب مصطفى.

منذ وقت طويل، لم يصدر عنه أيّ صوت ولم يقم بأيَّة حركة. يشعر البشير برغبة في أن يتطلَّع إليه، إلاّ أنّه لا يحيد بنظره عن شجرة الخرُّوب.

حالما يضع مصطفى رأسه على المخدّة، يتذكّر الحكاية.

تبدو له الآن وهو وحيد في الغرفة أخطر ممّا كان يظنّ. وللمرّة الأولى منذ أن تناهت إلى سمعه هذه الحكاية الغريبة، يشعر بقليل من الشفقة على البشير. تلاشى ذلك المزيج من الحرج والخجل الذي انتابه طوال اليوم منذ لقائه المبكر في الحقل بصديقه، وحلّ محلّه هذا الإحساس بالشفقة الذي لا يرتاح له بل يؤلمه، لأنّ مثل هذا الشعور لا يليق برجل في مقام البشير، خصوصًا إنْ صدر عن شخص فقير مثله. شخص يحبّ البشير ويقدّره ويدين له بأشياء كثيرة.

إلاّ أنّ هذا الإحساس بالألم لم يمنعه من أن يركّز على ما بقي في ذاكرته من تلك الليلة البعيدة، ليحاول أن يرى الأمور بشكل أكثر وضوحًا، ويفهم ما حدث بالضبط. لن يهتمّ الآن بالسؤال الذي خطر بباله عدّة مرّات طوال اليوم، وهو كيف عرف الذين يروّجون هذه الحكاية الغريبة أنّ البشير وجد صعوبات في مباشرة مبروكة، فالإجابة عنه لن تكون سهلة. وقد تحتاج إلى وقت طويل، وربّما إلى عدّة أسابيع، لأنّها أحد الألغاز الكبرى في المسألة. المهمّ الآن أن يركّز كلّ ما لديه من طاقة على ما حدث ليلة الدخلة.

أوّل ما يلفت انتباهه عندما يغوص في الذاكرة هو أنّه يتذكّر أشياء كان قد نسيها منذ وقت طويل. تفاصيل صغيرة كان يعتقد أنّها امّحت إلى الأبد. لكنْ، ها هي تعود بوضوح مدهش. هل هناك علاقة ما بين حكاية الحانوت وما ولّدت في نفسه من أحاسيس وبين انبجاس هذه التفاصيل من أعماق الذاكرة؟ شكل لطخة الدم على القميص. لون الوسادة التي وضعها تحت خصر مبروكة. حجم الحصير الذي كانت مستلقية عليه. المصباح وشعلته الزرقاء الذابلة. وجه البشير الشاحب. حركاته المضطربة.

لكنّ الغريب أنّه لا يتذكّر بالوضوح نفسه أشياء أكثر أهمّيّة من هذه التفاصيل، مثل عدد المرّات التي فشل فيها البشير في أداء واجبه، أو الوقت الذي أمضاه هو مختبئًا في الممشى المظلم خلف باب غرفة العروسين، بالرّغم من أنّ الساعة التي أهداه إيّاها البشير قبل العرس بأيّام قليلة كانت في معصمه، وأنّه كان يتطلّع إليها بين الفينة والأخرى بعد أن يسلّط عليها ضوء مصباحه الكهربائيّ الصغير، أو الكلمات التي تفوّه بها البشير وهو يسلّمه القميص الملطّخ بالدم ليحمله إلى أهل العروس المرابطين أمام البيت.

أمّا ما رآه من مبروكة بالصدفة، فهو يذكره جيّدًا. والحقيقة أنّه لم ير منها شيئًا دقيقًا محدّدًا. صحيح أنّه حين انزلق على الحصير، وجد نفسه وجهًا لوجه أمام أنوثتها. لكنّه فوجئ تمامًا بالمشهد. ثم إنّ الضوء لم يكن كافيًا ليتبيّن شيئًا معيّنًا منها. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ العمليّة لم تدم سوى ما تدومه رفّة جفن، فقد أغمض عينيه على الفور وتراجع برأسه إلى الخلف.

وهناك شيء آخر يذكره جيّدًا، وهو السؤال الذي بدأ يطارده ويعذّبه منذ أن صار متأكّدًا من أنّ الصعوبات التي يواجهها البشير ليست كلّها عاديّة، وأنّها لا تشبه الصعوبات التي يتغلّب عليها العرسان الجدد غالبًا بعد محاولتين أو ثلاث على أقصى تقدير: ماذا يفعل لو تتالت المحاولات ولم تؤدّ أيّة واحدة منها إلى علاج مبروكة؟

إنّه وزير. الجميع في الدوّار يعرف ذلك. وهو مسؤول مثل العريس عمّا يجري ليلة الدخلة. بل إنّ مسؤوليّته هو أكبر من مسؤوليّة البشير الذي شرّفه بهذا الاختيار، إذ إنّه متزوّج، ومن المفروض أن يكون على دراية تامّة بأمور الزواج والنساء صغيرها وكبيرها. وإن فشل البشير في أداء مهمّته، فإنّ أغلب اللوم سينصبّ عليه هو. وقد لا يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، فربّما تُروّج عنه إشاعات تشكّك في معرفته بما ينبغي للرجل أن يفعله في مثل هذه الحالات.

وفيما كان يرهف السمع لالتقاط أيّ صوت قادم من غرفة العروسين، شرع في البحث عن حلول لتجاوز المحنة وتجنّب الفضيحة. الحلّ الأوّل الذي خطر بباله هو أن يكذب. إنّه يكره الكذب. ويعرف أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ الكذّابين والمنافقين. ولكنّه مستعدّ لأن يكذب في هذا الظرف الصعب على أهل العروس. يجرح إصبعه. يأمر البشير بأن يأتيه بقميص مبروكة. يلطّخه بدمه. لا بدّ أن يسيل منه ما يكفي لإحداث لطخة كبيرة. ثم يخرجه إلى أهل العروس.

وبالطبع، ستنطلي عليهم الحيلة. إذ من يستطيع أن يفرّق بين دم سال من جرح في الإصبع ودم سال من أنوثة امرأة؟ ستتعالى الزغاريد على الفور، وسيعود أهل العروس إلى بيوتهم، وسيكون أمام البشير بعد التخلّص من هذه الورطة متّسع من الوقت لحلّ هذه المشكلة. بإمكانه أن يفعل ذلك بهدوء وعلى راحته ومتى يشاء. باستطاعته أيضًا أن ينجز مهمّته على مراحل إن أراد. كلّ يوم ضربة إلى أن يفتحها.

الحلّ الآخر الذي خطر بباله ما زال يعذّبه إلى حدّ الآن. نعم. لا بدّ أن

يعترف بأنّه فكّر في لحظة ما في ذلك المنكر. بالطبع، لن يقبل القيام به إلاّ إذا طلبه منه البشير وألحّ عليه في الطلب. كان يعرف أنّه أمر مستبعد جدًا. وهو ذاته يرفضه في الحقيقة. ولكنّه يعرف أيضًا أنّ الفضيحة تنتظر فرصة نادرة كهذه لتدمّر الجميع.. البشير. مبروكة. هو. أهل مبروكة. أهل البشير. أهله هو. وربّما سكّان الدوّار كلّهم. إنّ فضيحة كهذه تشبه الطوفان الهائل الذي يجرف ويدمّر كلّ شيء يعترض طريقه.

إلاّ أنّ الحلّ الذي استقطب اهتمامه، وبدا له مناسبًا وسهل الإنجاز وخصوصًا أقلّ ضررًا، هو أن يفتح البشير عروسه بإصبعه. طبعًا، هذا لا يعني أن ينجز كلّ العمليّة من أوّلها إلى آخرها بإصبعه. فليس هناك في هذه الدنيا رجل يقبل ذلك، وإنّما أن يستعين بإصبعه لإنجاز هذه المهمّة، أي أن يحدث في ذلك الغشاء اللعين الذي يعترض طريقه مثل جدار من الحجر ثقبًا صغيرًا جدًا بطرف إصبعه الصغيرة أو حتى بطرف ظفره. وفيما بعد يكمل العمليّة بالطريقة المعهودة.

إنّ ثقبًا بحجم حبّة الحمّص، أو حتى أصغر بحجم حبّة الشعير في وسط الغشاء، كاف تمامًا لكي يصبح الطريق سالكًا.

من المؤكّد أنّ إحداث ثقب في تلك المنطقة الرقيقة الحسّاسة بالإصبع، وخصوصًا بالظفر، سيسبّب لمبروكة ألمًا. لكنْ، كلّ شيء يهون في هذا الظرف الحرج. وعلى أيّ حال، فالوجع أمر لا مفرّ منه ليلة الدخلة. وكلّ عذراء تعرف أنّه لا بدّ أن تتألّم كي تصبح امرأة حقيقيّة، إذ إنّ الرجال يريدون أن يفتحوا زوجاتهم في وقت قصير جدًا. ولأنّهم يفعلون ذلك للمرّة الأولى، ولأنّهم أيضًا يكونون في معظم الأحيان سكارى، فإنّهم يتصرّفون بأقصى ما لديهم من عنف.

سوف لا يُبدي البشير بالتأكيد تحمّسًا لهذا الحلّ في البداية. وهذا من حقّه على أيّ حال. ولكنْ، إذا استمرّ في عناده ورفضه فإنّه لن يدّخر جهدًا لإقناعه ودفعه إلى قبول ذلك. سيقول له إنّ كلّ الرجال أو معظمهم الذين اعترضتهم هذه المشكلة لجأوا إلى أصابعهم. الصغيرة منها والكبيرة على حدّ السواء.. وهناك من يردّد أنّ بعضهم استعان بأشياء أخرى. أشياء لا تخطر ببال، إلاّ من أصابه الهلع، فلم يعد قادرًا على التفكير والتمييز بين الأمور. عود ثقاب. مبرد. قلم. وحتى مسمار! وقد يكذب عليه كي يزيد في إقناعه، فيقول له إنّه هو أيضًا فكّر في لحظة ما ليلة دخلته على محبوبة في استعمال إصبعه الصغيرة، وأنّه كان سيفعل ذلك بالتأكيد لو لم يفتح عليه الله ويسهّل عليه الأمر في المحاولة الثانية.

يركّز مصطفى كلّ اهتمامه على اللحظات القليلة التي سبقت خروج البشير من الغرفة، ليناوله قميص مبروكة الملطّخ بالدم. ويُدرك، وهو يحاول أن يقبض على أكثر ما يمكن أن تسعفه به ذاكرته، أنّها أكثر اللحظات غموضًا في تلك الليلة البعيدة. لم يعد يذكر مثلاً إن كان قد سمع ضجيجًا في غرفة العروسين بعد أن عاد إلى مخبئه في الممشى المظلم، وإن كان يميل إلى أنّه لم يسمع شيئًا. لم يعد يذكر أيضًا إن كان قد همس في لحظة ما للبشير بشيء ما من خلال فرجة الباب، الذي يميل إلى أنّه لم يوصده تمامًا وإنّما تركه مواربًا قليلاً لمتابعة سير العمليّة.

من المؤكّد أنّ ذلك يعود إلى انشغاله بالبحث عن حلٍّ لهذه المشكلة التي لم يكن يتوقّعها، فهو لم يكن يتصوّر حين قبل أن يكون وزيرًا للبشير أنّ صديقه سيواجه كلّ هذه الصعوبات. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان مشوّش الذهن بسبب خوفه من أن يفشل في مهمّته. ولا شكّ أيضًا أنّه كان مرتبكًا بعد انزلاقه المفاجئ على الحصير الذي جعله يرى ما قدّر له الله أن يراه من أنوثة مبروكة.

وللمرّة الأولى، يشعر أنّ الغموض الذي يلفّ تلك اللحظات الحرجة يدفعه إلى التفكير في أمر لم يخامره أبدًا من قبل. لأوّل مرّة بعد أعوام طويلة، يتساءل عن الطريقة التي حلّ بها البشير المشكلة. لم يشكّ أبدًا من قبل في أنّ صديقه نجح أخيرًا في علاج زوجته بالطريقة المعهودة. لكنّ لا يدري لماذا يشعر الآن وهو يحاول أن يرى الأشياء بشكل أكثر وضوحًا أنّ الأمر ربّما لم يتمّ كما كان يعتقد، وأنّ البشير ربّما لجأ من تلقاء نفسه إلى أصابعه بل وربّما إلى أشياء أخرى لحلّ هذه المشكلة.

كان فخورًا بأنّه أشرف على عمليّة فتح صعبة في ظروف غير ملائمة، وخصوصًا بأنّه لم يضطرب وقادها بحكمة وصبر، وبأنّه ساهم إلى حدٍّ بعيد في إنجاحها. لكنّ، ها هو يتساءل بعد أعوام طويلة عمّا إذا كان البشير قد ضحك عليه وأوهمه بأنّه استفاد من نصائحه، في حين أنّه استهان بها. ها هو يتساءل أيضًا عمّا إذا كانت هناك علاقة ما بين ما يمكن أن يكون قد حدث في تلك اللحظات الغامضة والحكاية التي يردّدها الناس في الحانوت.

ينتاب مصطفى مزيج من الألم والغضب. ليس فقط لأنّ صديقه قد يكون استهزأ به في وقت كان من المفترض أن يعترف له بالجميل للخدمة التي قدّمها له، وإنّما أيضًا لأنّه لم ينتبه إلى ذلك طوال كلّ هذه الأعوام. إن حدث هذا فعلاً فهو مغفّل. لا فرق بينه وبين حمار بأذنين كبيرتين. والأسوأ

من كلّ ذلك أنّ صديقه خانه. خانه عندما كان هو في أشدّ اللحظات وفاء له. والخيانة أمر منكر. وإذا أتت من صديق مثل البشير فهي لا تُغتفر.

يفتح عينيه على سعتهما ويبحلق في الظلام للحظات طويلة. زوجته محبوبة التي لا تنام مبكرًا مثله لا تزال في الغرفة المجاورة. وهي منهمكة بالتأكيد في عمل ما. ولن تلتحق به في الفراش على الأرجح إلاّ بعد وقت طويل. يستغلّ هذه الفرصة ويُشعل المصباح. ثم يرفع رأسه مستندًا بأعلى ظهره إلى الجدار.

عجيب ما يحدث له في هذه الليلة! منذ وقت قصير، كان يشعر بشيء من الشفقة على صديقه البشير. لكنّ ها هو الآن يفكّر في أمر لم يخامره أبدًا من قبل، وهو أنّ البشير خدعه. يغادر الفراش ويفتح الشبّاك بحذر كي لا يثير انتباه محبوبة، فهو يخشى أن تراه وهو في مثل تلك الحالة من الاضطراب، فتمطره بأسئلتها التي لا تنتهي. يدخّن نصف سيجارة بلهفة، وعيناه مركّزتان على باب الغرفة. يدسّ باقي السيجارة في جيب سرواله بعد أن يطفئها بإصبعه، ثم يعود إلى الفراش.

بعد وقت قصير، يسيطر على اضطرابه. تبدو له الأحاسيس التي انتابته منذ أن أسند رأسه إلى الوسادة متناقضة إلى حدّ يبعث على الحيرة والاستغراب. كيف يمكن للمرء أن ينتقل في وقت وجيز من إحساس إلى نقيضه خصوصًا في مسألة في غاية الأهمّيّة كهذه؟ هل وقع فريسة للهواجس التي تغزو الإنسان في الليل عادة عندما يكون قلقًا ومهمومًا؟ هل ذهب بعيدًا في ظنونه وتخيُّلاته وأوهامه؟ لا يدري. كلّ ما يدريه هو أنّ جميع هذه الأحاسيس هي وليدة تساؤل ومجرّد افتراض لا أكثر.

لماذا يعذّب نفسه إذن ويشغل ذهنه بمثل هذه الأمور؟ وعلى أيّ حال، حتى لو ضحك عليه البشير وأوهمه بأنّه قام بدور كبير في عمليّة الفتح وخانه وخدعه. حتى لو حدث كلّ هذا فعلاً، فليس باستطاعته أن يعرف الحقيقة. ليس باستطاعته أن يتأكّد من أيّ شيء. وستظلّ تلك اللحظات التي سبقت إخراج البشير لقميص مبروكة الملطّخ بالدم غامضة إلى الأبد. ولن يعترف له البشير أبدًا بأيّ شيء، إذ لا أحد في هذه الدنيا يقبل أن يُقال عنه إنّه فتح زوجته بإصبعه أو شيء من هذا القبيل.

منوبيّة لا تحترم أحدًا في الدوار مثلما تحترم صهرها «سي البشير تاجر الغنم». كما يحلو لها أن تسمّيه. ومنذ أن سمعت بحكاية الحانوت التي لم تشكّ لحظة واحدة في أنّها «كذب في كذب» كما تقول، لم تتوقّف عن شتم كلّ الرجال الذين يحسدون سي البشير، والدعاء عليهم. وما يؤلمها حقًّا هو أنّ هؤلاء الحسّاد تكاثروا بعد الثورة. وبعضهم صار يجاهر بحسده لسي البشير بل ويتطاول عليه، في حين أنّه لم يكن يجرؤ حتى على النظر مباشرة إلى عينيه قبل الثورة.

تتفرّس في وجه زوجها حامد المنتصب أمامها بقامته النحيلة والقصيرة. كان قد نهض فجأة، وهدّدها بالضرب إن لم تغلق فمها النتن، وتكفّ عن التدخّل في أمور الرجال التي لا تعنيها على الإطلاق. وخلافًا لما كان يُعتقد، لا تسكت منوبيّة. تنهض بدورها. عيناها ازدادتا اتّساعًا ولمعانًا من شدّة الغضب. ذراعاها مفرودتان. وأصابع يديها مشدودة كأنّها تتهيّأ للانقضاض عليه. تدنو منه قليلاً، ثم تمطرد بالشتائم. يستدير حامد حوله متطلّعًا إلى الطريق والحقول التي تحيط بهما. يتراجع خطوة إلى الخلف. ثم ينزل يده الممسكة بالعصا معلنًا بذلك أنّه تخلّى عن تهديدها بالضرب. بيد أنّ منوبيّة لا تتوقّف عن شتمه.

تقترب منه أكثر وتنحني عليه بجسدها الممتلئ الطويل.

ـــ هيّا.. اضربني.. اضربني..

يرفع حامد عصاه، ويلوّح بها في محاولة يائسة لإخافتها.

ـــ ماذا تنتظر؟.. هيّا.. اضرب..

ومرّة أخرى، يلتفت حوله ليتأكّد من أن لا أحد يتابع هذا المشهد الغريب الذي لا يدري كيف ورّط فيه نفسه.

ـــ انصرفي.. يا قحبة. اذهبي..

ـــ قلت إنّك ستضربني.. ها أنا أمامك.. هيّا.. اضربني..

يدرك في تلك اللحظة أن لا جدوى من الكلام، فيسكت. لم يكن يتصوّر حين هدّدها بالضرب أن تفعل ما فعلت. من عادتها أن تصمت. وإن لم تصمت، تناقشه بحدّة أو تسخر منه ناعتة إيّاه بـ «قصّاص الكروز»، لأنّه كان في فترة ما يقوم بختان الأطفال. كان الوحيد الذي لديه مقصّ جيّد في الدوّار. وكان يتقن الختان وكلّ الناس يعترفون له بذلك. وفي الحقيقة، كان يحبّ مقصّه ويجد متعة في استخدامه لغاية من هذا النوع.

وكان يختن مجّانًا، وأحيانًا مقابل فرُوج أو أرنب وحتى قليل من الزيت أو البيض.

هذه هي المرّة الأولى التي تغضب فيها إلى هذا الحدّ وتتمرّد عليه. وهو على يقين من أنّ ردّ فعلها سيكون عمليًا وعنيفًا إن تجرّأ وضربها ولو ضربة واحدة خفيفة. بالطبع، لن تضربه.. إذ إنّه لم يشاهد طوال حياته امرأة تضرب زوجها، وإن لاحظ أنّ بعض النساء صرن أكثر تحدّيًا لأزواجهنّ بعد الثورة. لكنّه متأكّد من أنّها ستمسك بكتفيه بيديها الغليظتين وتهزّه بقوّة قد تسقط عمامته فيتعرّى رأسه. وقد تفتك منه العصا وتلوّح بها مثلما فعل هو منذ حين. وربّما تدفعه بعنف وتلقي به على الأرض. وقد تذهب بعيدًا، فتهيل على رأسه حفنة أو حفنتين من التراب، أو تقذفه بما تقع عليه يداها من حصى وعيدان وبعر وجلّة وروث.

يلقي بالعصا على الأرض. ويتمدّد على الحصير. تسكت منوبيّة. لكنّ، بدلاً من أن تذهب إلى الحقل أو إلى بيت ابنتها مبروكة كما تفعل إثر كلّ خصومة بينهما للتعبير عن غضبها، تبقى في مكانها. يفاجأ عندما يراها تقترب منه بعد برهة وتجلس على بُعد خطوتين من حصيره. كان جسدها في الظلّ باستثناء جزء صغير من ساقيها الممدوتين. كانت قد خفضت رأسها وشبكت أصابع يديها. تبدو له وهي في مثل تلك الهيئة مختلفة تمامًا عمّا كانت عليه منذ لحظات.

ـــــ لا تبقي في الشمس..

لا يدري كيف خرجت الكلمات من فمه. كأنّ الذي تكلّم ليس هو، وإنّما شخص آخر داخله. يشجّعه صمتها على الكلام، فيضيف:

ـــــ بعّدي رجليك عن الشمس..

ومن جديد، يتفاجأ حين تستجيب لطلبه وتسحب قليلاً رجليها.

ـــــ الشمس في هذا الوقت خطرة..

لا تتكلّم. تلتقط عودًا، وتشرع في رسم خطوط على الرمل. وبالرّغم من أنّه يعرف جيّدًا أنّ الشمس ليست خطرة في مثل هذا الفصل من العام، فإنّه يتابع بلهجة واثقة:

ـــــ الشمس مضرّة بالبدن.

يُخيّل إليه أنّها هزّت رأسها، فيشعر بارتياح عميق. يستعيد كلّ ما قالته منذ حين، ويحسّ برغبة في أن يسألها عمّا إذا كانت ستدفعه بعنف وتلقي به على الأرض لو ضربها. بيد أنّه لا يفعل خوفًا من أن تنفعل من جديد أو تقول شيئًا يعكّر هذا الإحساس بالارتياح. إنّها فرصة نادرة لتجاوز

ما حدث بينهما. عليه أن يستفيد منها قدر الإمكان.

يغمض عينيه. ويشرع في البحث عمَّا يمكن أن يقول لها. لقد أظهر لها أنَّه غير مستاء منها، وأنَّه سامحها على وقاحتها وتصرُّفها الفظّ. فلو لم يسامحها لما طلب منها أن تحمي رجليها من الشمس، ولما كلَّمها أصلاً. والآن، ينبغي أن يثبت لها أنَّه يحبّها. لقد كان قاسيًا معها أكثر من اللازم عندما رفع عصاه في وجهها وهدَّدها بالضرب. وهو يحسّ بندم شديد على أنَّه نعتها بـ «القحبة»، وإن كان متأكّدًا من أنَّها تعرف جيّدًا أنَّه لا يعني ذلك. كلّ الرجال في الدوَّار ينعتون نساءهم بالقحاب عندما يشتمونهنّ.

ـــــ من مدّة ما تفقَّدت أرض التلّة.

يقول بصوت مرتفع كي تسمعه جيّدًا:

ـــــ لازم أتفقَّدها من وقت لآخر..

كان يعرف أنَّها متعلّقة بأرض التلّة وفخورة بها، فهي الشيء الوحيد الذي ورثته عن أبيها. وكلَّما أراد أن يُدخل إلى قلبها قليلاً من الفرح أو أن يتودَّد إليها، حدَّثها عن أرض التلّة وأبدى اهتمامه بها، بالرَّغم من أنَّه مقتنع بأنَّها لا تساوي شيئًا. إنَّها أرض صغيرة ملينة بالحجارة والأشواك تقوم فيها ثلاث زيتونات هرمة من عهد الرومان وتوجد بعيدًا عن الدوَّار. لقد استولى إخوتها على أخصب الأراضي وأقربها إلى الدوَّار، وتركوا لها هذه الأرض المجدبة التي تكاد لا تصلح لأيّ شيء. حتى الشعير لا ينبت فيها. وإن نبت، فهو لا يعطي إلاَّ القليل.

ـــــ يقولون إنَّ صابة الزيتون ستكون كبيرة هذا العام..

تمحو كلّ الخطوط التي رسمتها على الرمل بحركة واحدة، ثم تتمتم كأنَّها تخاطب نفسها:

ـــــ الكلب ابن الكلب..

يُدرك فورًا أنَّ الشتيمة ليست موجَّهة إليه هو. يستدير إليها ويركّز بصره على وجهها.

ـــــ كلب.. حلوف.. سافل..

بعد تردُّد يسألها:

ـــــ من هو هذا الكلب؟

ـــــ من هو؟ ألا تعرفه؟.. مصطفى.. هو الذي وراء حكاية الحانوت..

لا يفاجأ بعودتها إلى الموضوع الذي تسبَّب في خصومة بينهما، كادت تتحوَّل إلى عراك بالأيدي والعصي. فهو يعرف أنَّها عنيدة ومشاكسة.

لكنّه يستغرب ذكرها لمصطفى وإقحامه بهذا الشكل الذي لا يليق به في هذه الحكاية.

ـــــ كيف يقول هذا الكلام عن سي البشير؟.. الكلب ابن الكلب.. لولا سي البشير لأكله القمل.. ولمات من الجوع من زمان..

ـــــ وكيف عرفت أنَّ مصطفى وراء حكاية الحانوت؟

ـــــ من كان وزيرًا لسي البشير ليلة الدخلة؟.. مصطفى.. وحكاية كهذه لا يمكن أن يحكيها إلاَّ وزير..

منذ أن سمع بحكاية الحانوت، لم تعبر ذهنه قطّ فكرة أن يكون مصطفى وراء الإشاعة. الآن، يبدو له ذلك ممكنًا وإن كان يستبعده. نعم. ما تقوله منوبيَّة قد يكون صحيحًا إلى حدٍّ ما. لكنّه لا يرغب إطلاقًا في أن يراها تتدخَّل في هذا الموضوع، لأنّه واثق من أنَّ البشير يستطيع أن يدافع عن شرفه وشرف زوجته ولا يحتاج إلى أحد. لا إلى منوبيَّة ولا إلى غيرها. ثم إنَّ تدخُّل منوبيَّة في هذه المسألة الحسَّاسة، خصوصًا بهذا الأسلوب المشاكس، سيعقِّد المشكلة. إنّه يودّ أن يقول لها كلّ هذا. لكنّه لا يجرؤ.

ـــــ هو.. ولا واحد غيره..

تنظر إليه، فيهزّ رأسه تحت ضغط نظرتها الحادَّة. تشرع من جديد في رسم خطوط على الرمل بإصبعها هذه المرَّة. يقول:

ـــــ الدنيا فيها موت..

يستغفر الله بصوت مرتفع. ثم يردف:

ـــــ ربّي سبحانه لا يحبّ الظلم..

ـــــ آ..

ـــــ لا يحبّ الظلم والظالمين.. لذلك العاقل الذي يخاف الله لا يتّهم أحدًا بالباطل!

تتوقَّف عن رسم الخطوط، وتسأله:

ـــــ ماذا تقصد؟

ـــــ أقصد أنَّ العاقل يجب أن يتثبّت قبل أن يتَّهم أحدًا..

ـــــ سدّ فمك.. أنت لا تعرف كوعك من بوعك.. أنا امرأة.. والمرأة تفهم كلّ شيء في هذه الأمور.. مصطفى هو الذي وراء حكاية الحانوت..

ـــــ ولكن لماذا يفعل هذا؟

ـــــ لماذا؟.. الحسد..

حامد واثق من أنَّ مصطفى يحبّ البشير ويقدّره. وإن ثبت أنَّه وراء هذه الحكاية كما تقول منوبيّة، فلا بدَّ أنَّ هناك أسبابًا أخرى غير الحسد وما شابهه من هذه الأحاسيس البغيضة دفعته إلى ذلك.

ـــــ الحسد.. نعم. الحسد..

تردّد ذلك عدّة مرّات، ثم تسكت. عندما تنظر إليه بعد لحظات طويلة، يُدرك مدى تأثُّرها بهذه الحكاية. هو أيضًا تأثَّر بها، لكنْ ليس إلى هذا الحدّ، لأنَّه موقن من أنْ لا أحد من العقلاء يصدّقها، ومن أنَّ السفلة الذين يروّجونها لن يفلحوا في الإساءة إلى البشير ولا إلى زوجته، وإن كانت مبروكة غير مستهدفة شخصيًا على الأقلّ من هذه الإشاعة؛ فالمهمّ بالنسبة إليها في النهاية هو أنَّها كانت عذراء ليلة الدخلة، وأنَّ بكارتها دليل شرفها قد عولجت على مرأى ومسمع الجميع..

لقد انتابه بالطبع مزيج من الألم والغضب والحزن عندما سمع الحكاية. وهذه الأحاسيس لا تزال تعذّبه بين وقت وآخر، لأنَّ البشير لا يستحقّ هذا.. إلاّ أنَّه خلافًا لمنوبيّة التي تنساق كثيرًا لعواطفها يُدرك أنَّ ما يعنيه في الوقت الحاضر، وما يجب أن يعني زوجته وابنته أيضًا، هو العرض. عرضهم مصان والحمد الله ولم يلحقه أيّ أذى. هذا هو الأساسيّ. أمّا من «فتح» مبروكة ليلة الدخلة، فهذا ليس بالتأكيد أمرًا غير ذي شأن، لكنّه قضيّة أخرى.

ـــــ من المؤكّد أنَّ محبوبة السوداء هي التي حمّسته..

يسألها باستغراب:

ـــــ محبوبة المسكينة تقدر على هذا؟

ـــــ أنت المسكين.. محبوبة قحبة بنت قحبة..

ـــــ وحتى لو كانت قحبة.. محبوبة قادرة على خلق حكاية كهذه؟

ـــــ أنا لم أقل لك إنَّها خلقت الحكاية.. قلت إنَّها هي التي حمّست مصطفى ليقول هذا الكلام..

ـــــ آ..

ـــــ الناس يظنُّون أنَّها طيّبة.. عاقلة.. ولكنْ هي أفعى..

ـــــ ولماذا تفعل هذا؟

ـــــ لأنَّها تغار من بنتي.. هذه العبدة السوداء البشعة تغار من مبروكة..

تسأله بعد برهة بشيء من التحدّي:

ـــــ هل تعرف أنَّ محبوبة كانت تحبّ سي البشير؟

لا يستغرب ذلك، فحكايات الحبّ التي تروّج عن الرجال والنساء قبل الزواج كثيرة. وهو لا يرى عيبًا في ذلك، طالما بقيت مجرَّد حكايات تنتهي حالما تتمّ الخطوبة. ويذكر أنَّه هو نفسه أحبّ بنات كثيرات قبل أن يقع اختياره على منوبيّة. وبالرَّغم من ذلك، يتظاهر بالدهشة.

ـــــ لا أحد في الدوَّار يعرف ذلك.. إلاَّ أنا. ومنذ أن خطب سي البشير مبروكة، صارت تكرهها..

ـــــ لكنّ هذه حكاية قديمة جدًّا.. من عام ككح..

ـــــ قلت لك إنَّها أفعى.. قلبها أسود كبرمة قديمة.. ولا تنسى أيّ شيء.. أظنّ أنَّها حفست مصطفى ليقول هذا الكلام شماتة في سي البشير.. وربَّما تريد أن تفسد العلاقة بينهما..

ـــــ ولكن لماذا الآن؟.. لماذا لم تحاول أن تفسد علاقتهما من قبل؟

ـــــ لا أدري.. ربَّما لأنَّها لم تعد تخاف أحدًا بعد كلّ الذي حدث في البلاد.. ربّي سبحانه وتعالى هو الذي يعلم ما يوجد في رأس هذه الأفعى..

يحاول أن يبقى هادئًا وأن يمتنع عن إبداء أيّ ملاحظة، وأن يتظاهر بأنَّه لا يزال يهتمّ بما تقول. لكنَّه لا يستطيع هذه المرَّة، فمنوبيّة تذهب بعيدًا في تفسيراتها واستنتاجاتها. يقول لها بجرأة لا يدري من أين أتته:

ـــــ ربّي الذي تتحدَّثين عنه لا يحبّ هذا الكلام.

ويضيف على الفور بلهجة هادئة:

ـــــ استغفري الله.. انسي هذا الكلام.. لا يوجد عاقل واحد في هذه الدنيا يصدّقه.

يتفاجأ بأنَّ ردّ فعلها يختلف تمامًا عمَّا كان ينتظر. تحدّجه بنظرة حادَّة دون أن تتفوَّه بكلمة واحدة. وبعد وقت قصير، تخبط الأرض بيدها، ثم تمحو كلّ الخطوط التي رسمتها.

ـــــ الدنيا بردت..

يقول مصطفى وهو يحكم لفّ عمامته حول رأسه.

ـــــ آ.. بردت..

يقول البشير. يدرك مصطفى على الفور أنّ لا شيء في لهجة البشير يوحي بأنّه حزين أو مغتاظ كما في المرّة الماضية.

ولم يكن مخطئًا في ذلك. لأوّل مرّة، منذ أن سمع البشير بحكاية الحانوت يشعر أنّ مزاجه رائق. من المؤكّد أنّ عدم لقائه بمصطفى ليوم كامل، وخصوصًا ذهابه إلى سوق الهوارب وانهماكه في العمل، قد ساعده كثيرًا على أن يسيطر على غيظه وأن يستعيد هدوءه. وعلى أيّ حال، حتى لو كان كئيبًا وغاضبًا فإنّه سوف لا يستمرّ في صمته. لا بدّ أن يكلّم مصطفى في يوم ما. هو يلتقيه كلّ يوم تقريبًا؟

وهناك سبب آخر جعله يكلّم مصطفى هذا الصباح، ويتصرّف معه على هذا النحو. لقد انتبه خلال الساعات الأخيرة التي أمضاها وحيدًا إلى شيء لم ينتبه إليه وهو في حالة الحمّى والاضطراب التي أصابته منذ سماعه الخبر. شيء أساسيّ جدًّا في هذه المسألة الخطرة. لا وجود لدليل يثبت بشكل لا يدع أيّ مجال للشكّ أنّ مصطفى هو الذي كان وراء هذه الإشاعة. وكلّ ما لديه الآن هو استنتاجات. نعم. مجرّد استنتاجات. وهي غير كافية بالمرّة لكي يتّهم صديقًا مثل البشير. إنّ اتّهامًا من هذا النوع سيؤثّر بالتأكيد على صداقتهما بل قد يدمّرها إذا ثبت فيما بعد أنّه اتّهام باطل.

الآن وقد مرّت اللحظات الأولى بسلام. الآن وقد نجح في تلقّي الضربة الأولى دون أن ينهار أو يفقد صوابه. الآن وقد استوعب إلى حدّ ما الصدمة، ينبغي أن يحافظ على هدوئه. يجب أن يتريّث ويفكّر مليًا قبل أن يقدم على أيّ خطوة. يتذكّر لقاءه السابق بمصطفى، فيحمد الله على أنّه منحه من الصبر والتماسك والقوّة ما يكفي كي لا يرتكب خطأ فادحًا.

ـــــ هل ذهبت إلى السوق أمس؟

ـــــ آ..

ـــــ أيّ سوق؟

ـــــ الهوارب..

ـــــ آ..

كان مصطفى يعلم أنَّ البشير ذهب أمس إلى سوق الهوارب، وأنَّه اشترى شياهًا. فقد رآه حين عاد إلى الدوَّار في الظهيرة. وهو على يقين من أنَّ البشير شاهده بدوره عندما كان يتمشى بمحاذاة سياج الصبَّار. ومع ذلك، طرح عليه هذه الأسئلة.

وما أبهجه هو أنَّ البشير أجابه دون تردُّد، ممَّا يدلّ على أنَّه هو أيضًا يشعر برغبة في الحديث إليه في هذا الصباح.

ـــــ وكم من رأس اشتريت؟

ـــــ ستَّة..

ـــــ ستَّة رؤوس!

ـــــ آ..

عندما يشتري البشير شياهًا كثيرة يطلب منه بين الحين والآخر أن يساعده في الاعتناء بها. لا يكلِّفه طبعًا بأعمال شاقَّة أو تستغرق وقتًا طويلاً، فهذا من شغله هو ومن شغل مبروكة أيضًا، وهي تقوم به على أحسن ما يرام لكثرة ما تعوَّدت عليه. لكنَّه يطلب منه حين يكون متعبًا أو منهمكًا في القيام بعمل ما أن يقتاد الشياه إلى المراعي البعيدة عن الدوَّار التي لا تستطيع أن تذهب إليها النساء. ومقابل ذلك، يعطيه قليلاً من الفلوس أو يشتري له عمامة أو شاشيَّة أو حقّ نفَّة معطَّرة يوم يبيع الشياه بعد تسمينها ويحقِّق أرباحًا.

دائمًا يشعر بالفرح حين يكلِّفه البشير بعمل ما. ليس لأنَّه يعرف أنَّه سيكافأ على ذلك فحسب، وإنَّما أيضًا لأنَّ هذا التكليف يعني له أنَّ البشير يثق به ويعوِّل عليه كثيرًا. بعد أيَّام قليلة، سيلجأ إليه البشير لمساعدته. وحتى لو لم يفعل ذلك هذه المرَّة، وهذا مستبعد، فإنَّه سيظهر له بكلّ الوسائل أنَّه على استعداد تامّ للقيام بما كان يقوم به في السابق، ليثبت له أنَّه لا يزال الصديق المخلص الوفيّ الذي يمكنه أن يعوِّل عليه، وليبيِّن أيضًا للحسَّاد أنَّ صداقتهما أقوى من أن تتأثَّر بهذه الإشاعة التي لا رأس لها ولا ذنب.

ـــــ وكيف كانت السوق؟

ـــــ عامرة.

يشعل مصطفى سيجارة ويشرع في تدخينها.

ـــــ لكنْ أقلّ من قبل..

ـــــ بسبب البرد..

ـــــ البرد؟.. لا أظنّ.. البرد لا يمنع الناس من الذهاب إلى السوق.. يمكن بسبب الثورة.. وهذه الفوضى التي تعمّ البلاد.. سمعت أنّهم صاروا يقطعون الطرقات، ولا يتركون السيّارات تمرّ.. سمعت أيضًا أنّهم صاروا يضربون الناس ويسلبون فلوسهم..

لا يقول مصطفى شيئًا. يتراجع قليلاً، ليقترب قدر الإمكان من سياج الصبّار الذي يحميهما من الريح الباردة. ثم يرسل بصره إلى شجرة الخرّوب التي لا تتوقّف أغصانها عن الحركة. كانا يجلسان في المكان نفسه الذي التقيا فيه المرّة الماضية. لكنّهما كانا أكثر قربًا من بعضهما بعضًا. يكفي أن يميل أحدهما قليلاً صوب الآخر لكي يتلامسا. برنساهما الطويلان يغطّيانهما من كلّ الجوانب. وبين الفينة والأخرى، يحرّكان أقدامهما ليتجنّبا برد التراب الندي.

ـــــ هذا البرد لا ينفع معه الجلوس..

يقول البشير فجأة وهو ينهض.

ـــــ آ..

ينهض مصطفى بدوره. ويسيران على مهل بمحاذاة السياج. يتطلّعان في صمت من خلال فجوات الصبّار إلى طريق حفوز. لا أحد يعبرها في مثل ذلك الوقت المبكر. كلّ الحقول التي يمكن مشاهدتها من هناك خالية أيضًا. لا حركة ولا صوت سوى نباح كلاب وأصوات خافتة قادمة من الدوّار. وعندما يبلغان نهاية الحقل، حيث تقوم شجرة الخرّوب، يتوقّفان. يقول مصطفى وهو يتفحّص الأرض حولهما:

ـــــ الحشيش كثير هنا..

ـــــ آ..

ـــــ من مدّة ما رأيت حشيشًا أخضر كهذا الحشيش..

ينحني. يقتلع قليلاً من العشب. يتحسّسه. يقرّبه من أنفه ويتشمّمه وهو يردّد:

ـــــ هذا الحشيش فيه خير وبركة..

يرمي بالعشب على الأرض باستثناء عشبة واحدة طويلة يضع طرفها في فمه ويشرع في لوكها.

ـــــ أخبر مبروكة.. لا بدّ أن تأتي بالشياه لتسرح هنا..

إنّها المرّة الأولى التي يذكر فيها اسم مبروكة أمام البشير منذ أن

بلغتهما حكاية الحانوت. لم يفعل هذا عمدًا، وهو لم يفكّر أصلاً في هذه الحكاية. كلّ ما أراد أن يفعله هو أن يستغلّ فرصة وجودهما وسط هذا العشب الكثير، ليظهر للبشير أنّه يولي شياهه ما تستحقّ من الاهتمام، وأنّه معني مثله بمسألة تسمينها في أسرع وقت ممكن.

يلوم نفسه على أنّه لم يكن حذرًا بما فيه الكفاية، وأنّه انساق لمشاعره في وقت كان ينبغي أن يراقب ذاته ويختار كلماته بدقّة. ولحسن الحظّ، فإنّه لم يلحظ أيّ شيء في تصرّفات البشير يدلّ على أنّه متضايق من ذكر اسم زوجته. بل يُخيَّل إليه وهو يراه ينحني بدوره على العشب ليتحسّسه بإعجاب أنّه لم ينتبه أصلاً إلى ذلك. يدنو من شجرة الخرّوب، ويسأل البشير مغيّرًا مجرى الحديث:

ـــــ هل تذكر عندما كنّا نأتي إلى هنا.. في الظهيرة؟

لا يتكلّم البشير. يضيف:

ـــــ أذكر أنّك كنت تحبّ هذا المكان..

يستدير ويسند ظهره إلى جذع الخرّوبة.

ـــــ أنا كنت أحبّ زيتونة الكلب.. لأنّ جذعها أكبر.. وظلّها أفضل..

كان البشير قد اقترب بدوره من شجرة الخرّوب. يمسك بغصنها الضخم الذي يكاد يلامس الأرض، ويهزّه بقوّة فتتساقط منه بعض الأوراق.

ـــــ كنت أتبعك عندما تريد أن تذهب إلى الخرّوبة..

ـــــ ليس دائمًا..

ـــــ صحيح.. ليس دائمًا..

ـــــ وكنّا لا ننام وقت القيلولة.. الكبار فقط كانوا ينامون..

ـــــ آ.. كنّا نتمدّد على الأرض عندما نتعب.. وفي بعض المرّات نغمض عيوننا.. لكنّنا لا ننام..

بعد تردّد، يسأل مصطفى البشير دون أن ينظر إليه:

ـــــ هل تذكر ماذا كنّا نفعل هنا؟

ـــــ آ..

يصمت مصطفى للحظة طويلة، ثم يتابع:

ـــــ كنّا لا نترك أحدًا يقترب منّا.. نطرد كلّ الأولاد.. ونبقى وحدنا..

ومن جديد، يهزّ البشير الغصن بقوّة، ثم يلتقط إحدى الأوراق المتساقطة ويشرع في تأمّلها.

ـــــ تذكر.. لماذا كنّا نريد أن نبقى وحدنا؟

يلقي البشير بالورقة على الأرض دون أن يتفوّه بكلمة. يقترب منه مصطفى ويُعيد السؤال فيُجيبه البشير:

ـــــ آ.. أذكر..

تتملّك مصطفى آنذاك رغبة قويّة في أن يسأله عمّا إذا كان يتذكّر كلّ شيء. اللحظات الطويلة التي يقضيانها في تأمُّل جسديهما. المقارنة الدقيقة بينهما. المرّة الوحيدة التي قرّرا فيها أن يمكّن كلّ واحد منهما الآخر من نفسه لاكتشاف هذه اللذّة التي يتحدّث عنها الجميع، لكنّهما عدلا عن ذلك في اللحظة الحاسمة.

وبالرّغم من أنّ مصطفى يعتبر كلّ هذا لعب أطفال، وأنّ ما فعلاه تحت الخرُوبة فعله أغلب أطفال الدوّار، وهو لا يُثير في نفسه الآن أيّ إحساس بالندم أو الذنب أو أيّ شيء من هذا القبيل، فإنّه لا يجد من الشجاعة ما يكفي ليطرح على البشير هذا السؤال. فالخوض في مثل هذه المسائل في هذا الظرف الحسّاس قد يذكّره بإشاعة الحانوت.

يغادران المكان. يجتازان الحقل كلّه، ثم يتوقّفان أمام سياج الصبّار. لم يكن مرتفعًا في ذلك الموضع. كانت تتخلّله فجوات عديدة وواسعة بما فيه الكفاية للخروج من الحقل دون المرور بالمدخل. أغلب بيوت الدوّار قريبة من هناك. وباستطاعتهما أن يبلغاها في دقائق قليلة لو مرّا عبر هذه الفجوات. إلاّ أنّهما لا يفعلان، لأنّ التسلُّل بهذه الطريقة لا يليق برجل في مقام سي البشير. يواصلان السير صوب مدخل الحقل غير عابئين بالمسافة التي تفصلهما عنه ولا بقطرات المطر التي بدأت تتساقط على وجهيهما.

منذ هذه اللحظة، يقرّر مصطفى أن يضع حدّا لهذا الكذب الذي لم يعد يحتمله.

منذ هذه اللحظة، يقرّر أن يعترف. نعم. لقد اشتهى زوجة صديقه. ليس مرّة واحدة بل.. مرّتين!

الأولى، عندما رفع رأسه إثر سقوطه ووجد نفسه وجهًا لوجه أمام أنوثتها بين ساقيها المفتوحتين على سعتهما. صحيح أنّه لم ير من مبروكة شيئًا محدّدًا ودقيقًا، لأنّه أغمض عينيه على الفور فضلاً عن أنّ الضوء كان لحسن الحظّ خافتًا. لكنّ رائحتها غزته. ورائحة الأنثى لا يصمد أمامها أيّ رجل حتى لو كان عاقلاً رصينًا مثله، خصوصًا إذا كانت هذه الأنثى عروسًا وكان الجوّ كلّه يعبق برائحة الشهوة.

أمّا المرّة الثانية، فقد اشتهاها عندما شرع يبحث وهو مختبئ في الممشى المظلم خلف باب غرفة العروسين عن الحلول التي يمكن اللجوء إليها لتجنّب الفضيحة في حالة فشل البشير في أداء واجبه، وتحديدًا حين فكّر خلال لحظة ما في إمكانيّة أن يوافق على أن يحلّ محلّ العريس إن طلب منه البشير ذلك بالطبع.

لم يبح بهذا السرّ لأحد. زوجته محبوبة، التي تحبّ مثل كلّ النساء الحديث عن الزواج والأعراس وكلّ ما يتعلّق بها، طرحت عليه أسئلة عديدة بطرق مختلفة وفي أوقات مناسبة. كانت تريد أن تعرف ما حدث ليلة الدخلة لمجرّد المقارنة بين دخلته هو ودخلة البشير كما تقول. إلاّ أنّه لم يقع في الفخّ. تكتّم على كلّ شيء. ولم يحدّثها إلاّ عن أمور لا أهمّيّة لها.

يذكر أنّه ظلّ طوال الأيّام الأولى التي أعقبت ليلة الدخلة كئيبًا ومضطربًا، ليس لأنّه رأى بالصدفة من مبروكة ما هو محرّم عليه رؤيته فحسب، وإنّما أيضًا لأنّه اشتهاها. وما كان يزيد في اضطرابه هو أنّه كان يخيّل إليه في بعض الأحيان أنّ البشير يعرف أنّه اشتهاها. كان يتساءل أيضًا عمّا إذا كانت مبروكة قد اكتشفت هي أيضًا شهوته، وخصوصًا عمّا إذا كانت قد لفحت إلى ذلك أمام زوجها.

صار أيضًا ناقمًا على صديقه، إذ كان يعتبره المسؤول الوحيد عن كلّ ما حدث له ليلة الدخلة، بدءًا من تعثّره الذي أدّى إلى سقوطه المفاجئ على الحصير، وانتهاء بتلك الشهوة اللعينة التي تملّكته. فلو عالج عروسه في المحاولة الأولى أو الثانية أو حتى الثالثة، لما وقع في هذه الورطة،

ولما انتابته كلّ هذه الأحاسيس الموجعة. ومن حسن الحظّ أنّ هذا الشعور بالنقمة لم يدم طويلاً.

ـــــ في أيّ شيء تفكّر؟

تسأله محبوبة وهي تجلس بجواره على الحصير الذي كان قد بسطه على الأرض أمام البيت كما يفعل كلّ صباح بعد شروق الشمس.

ـــــ لا أفكّر في أيّ شيء..

ـــــ كنت شارد الذهن..

ـــــ وكيف عرفت؟

ـــــ نظرت إليك من الشبّاك لمّا كنت في البيت..

ـــــ كنت تتلصّصين عليّ؟

تومئ برأسها بالإيجاب. ثم تضحك وتزداد اقترابًا منه. يضحك بدوره، ويسألها:

ـــــ هل تلصّصتِ عليّ من قبل؟

ـــــ آ..

ـــــ عدّة مرّات؟

ـــــ آ..

ـــــ كم؟

ـــــ لا أدري..

تنعكس أشعّة الشمس بغتة على وجهه. يغمض عينيه ويرفع رأسه قليلاً ليستمتع أكثر بدفئها.

ـــــ في الحقيقة.. كنت أفكّر في المراعي التي يمكن أن أسوق إليها الشياه..

ـــــ أيّ شياه؟

ـــــ شياه البشير التي اشتراها من سوق الهوارب..

تسأله باستغراب:

ـــــ شياه البشير هي التي تشغل بالك؟

ـــــ آ..

ـــــ كذّاب..

ليست هذه هي المرّة الأولى التي يكذب عليها وتكتشف أنّه يكذب، فهي تمتلك حاسّة خاصّة تمكّنها من أن تشمّ، كما تقول، هذا النوع من

الأكاذيب. وبالرّغم من ذلك، فهو لم يعترف لها أبدًا بأنّه يكذب. ليس خوفًا منها بالطبع، وإنّما لاعتقاده أنّ الرجل مهما كان مقامه يجب عليه أن يخفي مثل هذه الأمور عن زوجته.

يفتح عينيه، ثم يغمضهما من جديد. يلوذ بالصمت، فهو يعرف أنّ كلّ ما يمكن أن يقوله لها لن يغيّر في الأمر شيئًا، لأنّها عنيدة ولا تقتنع بسهولة، فضلاً عن أنّ ما سيقوله قد يوقعه في التناقض أو الخطأ ممّا سيشجّعها على أن تمطره بالأسئلة وتضيّق عليه الخناق أو تفضحه.

تسكت بدورها. وحين يختلس إليها النظر بعد وقت قصير، يكتشف أنّها قد أغمضت عينيها. شفتاها الغليظتان مزمومتان ويداها المشبوكتان تطوّقان ركبتيها المضمومتين. أمّا رأسها المائل صوب الشرق، فقد كان غارقًا في ضوء الشمس.

صحيح أنّها ليست جميلة، فبشرتها ليست بيضاء وشعرها ليس ناعمًا، ووجهها بتقاطيعه الحادّة يشبه وجوه السود أكثر ممّا يشبه وجوه البيض. صحيح أيضًا أنّ مؤخّرتها ليست كبيرة ومستديرة بما فيه الكفاية، لكنْ لا بدّ من الإقرار بأنّ صدرها رائع. ويمكن القول إنّه أجمل صدر لدى كلّ نساء الدوّار. فنهداها ضخمان مكوّران طريّان ناعمان. والأهمّ من هذا، هو أنّهما لم يترهّلا كثيرًا كنهود كلّ النساء اللاتي في سنّها، فقد ظلاّ على قدر كبير من التماسك والصلابة.

إنّه معجب بهذين النهدين الضخمين. ولولاهما لما احتمل العيش مع محبوبة كلّ هذه الأعوام. ولا بدّ من الاعتراف بأنّ النهود بصفة عامّة تسترعي انتباهه وتجتذبه منذ أن كان طفلاً. في البداية، كان يجد متعة هائلة في النظر إليها بسبب أشكالها التي تبدو له متميّزة طريفة. وفيما بعد، لمّا كبر، اكتشف أنّها أكبر شيء مثير للشهوة عند الأنثى بعد المؤخّرة طبعًا التي تظلّ دائمًا في الصدارة. كان مجرّد الإمساك بالحلمة وهي تنتصب بين أصابعه يهيّجه، بالإضافة إلى أنّ النهود تمنحه إحساسًا لذيذًا بالاطمئنان. يذكر أنّه كان يضع رأسه باستمرار على صدرها في الأيّام الأولى التي أعقبت زواجهما. وبين وقت وآخر، كانت تسمح له بأن يمصّ حلمتيها تمامًا كما يفعل الرضيع.

تمدّ رجليها، وتشبك يديها خلف رأسها وهي لا تزال مغمضة العينين. الآن صار بوسعه أن يرى ما كان محجوبًا من جنبها. كمّ المريول الذي ترتديه تحت الملحفة واسع. يكفي أن يميل قليلاً كي يرى جزءًا من النهد الأيسر. في السابق، كان لا يكتفي بالنظر. كلّما رأى نهدها أو جزءًا منه

امتدَّت يده إليه على الفور. لم يعد يجرؤ على ذلك منذ فترة طويلة. وهو واثق الآن من أنَّها ستدفع يده بقوَّة لو حاول أن يداعب صدرها. وقد تذهب أبعد من ذلك فتشتمه ممَّا سيفاقم توتّره، إذ إنَّه يتطيّر من الشتائم في الصباح ويرى فيها فألاً سيئًا.

يتطلَّع إلى وجهها الملتمع تحت ضوء الشمس. تبدو له من تلك الزاوية أقلّ دمامة وأصغر سنًّا. بل ويُخيَّل إليه وهو يحدّق في أنفها وجبينها وذقنها أنَّ لها شيئًا من الجمال.

ـــــ هل كنت تفكّر في الحكاية؟

يباغته السؤال، فيقول:

ـــــ أيّ حكاية؟

ـــــ أيّ حكاية؟.. حكاية الحانوت..

كان على يقين من أنَّ محبوبة سمعت بحكاية الحانوت، لأنَّ حكاية مثيرة من هذا النوع لا يمكن إلاَّ أن تنتشر بسرعة. بيد أنَّه لم يكن يتصوَّر أنَّها ستتحدَّث عنها أمامه بكلّ هذا الوضوح وبكلّ هذه الجرأة. إنَّه لا يزال يذكر أنَّها أبدت اهتمامًا كبيرًا بزواج البشير. وقد بدا له هذا الاهتمام آنذاك طبيعيًا، بحكم أنَّ العريس اختاره وزيرًا له ليلة الدخلة. وكان واثقًا من أنَّها ستأتي على ذكر حكاية الحانوت في يوم من الأيَّام، إلاَّ أنَّه لم يكن ينتظر على الإطلاق أن تفعل ذلك بهذا الأسلوب المباشر الوقح. كان يتوقَّع أن تلفح إلى الحكاية أو تشير إليها، وفي وقت حميمي مناسب لمثل هذه الأمور. عندما يكون فوقها مثلاً، أو حين يكون عاريًا في القصعة للاغتسال ويطلب منها أن تطلي ظهره بالصابون..

أوَّل شيء خطر بباله هو أن يضربها. يرفع يده عاليًا ويهوي بها على رأسها. يفعل ذلك عدَّة مرَّات. وبالطبع، يمطرها بأقذع الشتائم خلال ذلك، لأنَّ امرأة تتحدَّث عن أشياء كهذه بلا أدنى حياء وحشمة أمام زوجها تستحقّ عقابًا من هذا النوع، بل وأسوأ بكثير. وفيما بعد يقرّر أن يكتفي بتوبيخها ولومها بشدَّة. لم يتخلَّ عن فكرة ضربها خوفًا منها، وإن صار في الأعوام الأخيرة يخشى ردَّة فعلها، وإنَّما خوفًا من إخوتها الذين هدَّدوه في آخر مرَّة ضربها بأنَّهم سيمرّغون رأسه في التراب ويبولون على لحيته لو تجرَّأ ورفع يده مرَّة أخرى في وجه أختهم الوحيدة.

في النهاية، لا يفعل هذا ولا ذاك، لأنَّه أدرك بسرعة أنَّ تصرُّفًا من هذا القبيل في مسألة حسَّاسة كهذه لن يزيدها إلاَّ تعقيدًا.

والأدهى من ذلك، سيوحي لمحبوبة بأنَّه يولي هذه الحكاية أهمّيَّة

كبيرة، وهذا ما ينبغي أن يتجنَّبه بكلّ الوسائل. ليغضّ الطرف إذن عن قلّة حيائها ووقاحتها هذه المرّة. وعلى أيّ حال، ليس لديه أيّ خيار آخر. ولكي يتحمّل ذلك، عليه أن يستعين بالصبر وألاّ ينسى أنّها تصرّفت مثلما تتصرّف كلّ النساء. والنساء كما يعرف الجميع خفيفات العقول ويتّبعن أهواءهنّ. والرجل العاقل الرصين مثله لا يأخذ كلامهنّ على محمل الجدّ ولا يحاججهنّ أو ويعاكسهنّ.

ـــــ هذه الحكاية كذب في كذب..

يقول دون أن ينظر إليها، ثم يضيف بصوت عال:

ـــــ والذين يروّجونها أوباش..

كان يتوقّع أن تطرح عليه أسئلة أو تُبدي بعض الملاحظات أو تعلّق على كلامه، وهو متهيأ لمواجهة كلّ ما يمكن أن يبدر منها، لكنّها لم تنبس بكلمة. يندهش لذلك. وما يدهشه أكثر هو أنّ صمتها الغريب يتواصل. يحتار في تفسير موقفها.

ولا يدري كيف يجب أن يفهم هذا الصمت. هل سكتت لأنّها تستخفّ كثيرًا بكلامه إلى درجة أنّها لا ترى أيّ جدوى من الردّ عليه أم لأنّها توافق على ما قاله، وإن كان يستبعد ذلك؟

بعد تفكير طويل، يسترق النظر إلى وجهها بحثًا فيه عمّا يمكن أن يساعده على فهم هذا الصمت المحيّر. لكنّه لا يتوصّل إلى أيّة نتيجة، فيتفاقم إحساسه بالارتباك. عندئذ، يقرّر أن ينسى الأمر ولو موقّتًا، وأن يستمتع قدر الإمكان بدفء أشعّة الشمس قبل أن تحجبها الغيوم.

في اللحظة التي ينتهي البشير من قضاء وطره، وتحديدًا عندما يسحب نفسه من مبروكة التي كانت مستلقية على ظهرها فوق الزربيّة، يتذكّر أنّ مصطفى شاهد قبل أعوام كثيرة ما يحيط بأنوثتها وربّما جزءًا منها. لا يدري كيف تسلّلت هذه الفكرة اللعينة إلى ذهنه لتفسد لذّته، وتقضي على كلّ ما يعقبها من أحاسيس وأفكار مبهجة. إلاّ أنّ الأمر لم يقف عند هذا الحدّ لسوء الحظّ. فبينما كان يتأمّل ملامح وجهها مثلما يحلو له أن يفعل كلّما باشرها تفتح مبروكة فجأة عينيها خلافًا للعادة، فتلتقي نظراتهما. تغمض عينيها على الفور. لكنّ ما رآه في عينيها خلال تلك اللحظة القصيرة كان كافيًا كي يدرك أنّها هي أيضًا سمعت بحكاية الحانوت.

وبالرّغم من أنّه يعرف أنّ حكاية كهذه لا بدّ أن تنتشر بين النساء، فإنّه لم يكن يتصوّر أن يحدث ذلك بمثل هذه السرعة.

الغريب أنّه كان يعتقد لأسباب غامضة أنّ مبروكة هي آخر من سيسمع الحكاية. بل وكان يُخيّل إليه في بعض الأحيان أنّها لن تسمعها أبدًا، كما لو أنّها تعيش دائمًا داخل البيت معزولة تمامًا عن العالم الخارجيّ، أو كما لو أنّها لا تلتقي أحدًا عندما تخرج لتسوق الشياه إلى المراعي القريبة أو تذهب إلى البئر لجلب الماء أو لتزور أمّها!

وعلى أيّة حال، فإنّ سماعها الحكاية لن يغيّر في الأمر شيئًا بالنسبة لها. لن تهتمّ بها طبعًا، وستستهزئ بالذين يروونها. إذا كان هناك شخص عداه وعدا مصطفى يعرف أنّه هو الذي باشرها ليلة الدخلة، فهو مبروكة. إنّ ما يؤلمه هو أنّ حكاية الحانوت ستذكّرها حتمًا بأنّه واجه صعوبات في أداء واجبه، وهو ما يودّ أن تنساه إلى الأبد. وما يزيد في تعذيبه هو هذا السؤال الذي بدأ يلحّ عليه من جديد، بعد أن استطاع أن يتخلّص منه لفترة طويلة. هل تعرف مبروكة أنّ مصطفى شاهد جزءًا من أنوثتها أو ما يحيط بها؟

لا يمكنه إلاّ أن يجيب بالنفي، فقد كانت تدير رأسها صوب الحائط حين وقع مصطفى بين ساقيها المفتوحتين، فضلاً عن أنّها كانت تغمض عينيها. وحتى لو افترضنا أنّ عينيها كانتا مفتوحتين، وأنّها لم تستطع أن تقاوم الرغبة في التطلّع إلى ما حولها أو في النظر إلى مصطفى.. حتى لو افترضنا أنّها ضعفت إلى هذا الحدّ واستسلمت لأحاسيسها، وشاءت أن تراقب بعضًا من حركات الرجل الذي صارت تعوّل عليه كثيرًا لإنقاذ ليلة

دخلتها، وبالتالي عرسها وزواجها، بعد المحاولات العديدة الفاشلة. وهذا محتمل، لأنَّ البشر.. سبحان الله.. هم في النهاية بشر.. حتى لو افترضنا ذلك، فمن المستحيل أن ترى رأسه الذي شاءت الصدفة أن يقع بين ساقيها لسبب بسيط، وهو أنَّ وضعيَّة الاستلقاء التي كانت فيها لا تسمح لها بذلك.

أقصى ما يمكن أن تشاهده من هناك هذا إذا رفعت رأسها، هو أعلى ظهره. فكيف ستعرف إذن أنَّ مصطفى نظر إلى أنوثتها؟

لكنَّ المشكلة هي أنَّ باستطاعة مبروكة أن تخمّن ذلك. لقد اقترب ابن الكلب من أنوثتها اقترابًا شديدًا. ومن يدري! ربَّما لامسها ملامسة خفيفة بأنفه أو شفتيه أو ذقنه دون قصد بالطبع. ولا شكَّ أنَّها انتبهت إلى ذلك، بالرَّغم من حالة الاضطراب والخوف التي كانت فيها. ولا شكَّ أيضًا أنَّها أحسَّت بأنفاسه الحارَّة حول أنوثتها. سيظلّ هذا السؤال يعذِّبه. والشيء الوحيد الذي باستطاعته أن يضع حدًّا لعذابه هو جواب مبروكة. ولكنْ للحصول عليه، لا بدَّ أن يطرح عليها السؤال. وهذا ما لا يجرؤ عليه في الوقت الحاضر على الأقلّ. ينتبه إلى شيء آخر لا يدري كيف غفل عنه. شيء في غاية الأهمِّيَّة، بل حاسم في هذه المسألة. ماذا لو أجابت مبروكة عن سؤاله بالإيجاب؟ ماذا لو قالت له إنَّها خمّنت أنَّ مصطفى شاهد أعضاءها الحميمة ليلة الدخلة؟

يستغفر الله عدَّة مرَّات، ثم يقرِّر أن يطرد من ذهنه كلّ هذه الأفكار المزعجة. تنهض مبروكة وهي تسوّي ثيابها، ثم تتوجَّه إلى ركن الغرفة حيث الكانون الذي وضعت عليه إبريق الشاي قبل أن يبطحها البشير على الزربيَّة ويتمدَّد فوقها. لا شيء في نظراتها وتصرُّفها يدلّ على أنَّها لاحظت أنَّه مشوَّش الذهن أو أنَّ أمرًا ما يحيِّره. حين تقترب منه وتقدِّم له الشاي، يقول:

ـــــ غدًا، سأذهب إلى سوق حاجب العيون..

يأتي على ما في الكأس في ثلاث رشفات، ويمسح شفتيه بظاهر يده.

ـــــ من مدَّة ما ذهبت إلى سوق حاجب العيون.. كنت خائفًا من أن يسلبني اللصوص وقطَّاع الطرق الذين يسمُّون أنفسهم ثوَّارًا.. يبدو أنَّ الأمور بدأت تهدأ الآن..

يُعيد إليها الكأس الفارغة، ويسألها:

ـــــ وأنت.. هل شربت؟

ـــــ آ..

يتمطّق طويلاً للتعبير عن إعجابه بالشاي، ويقول:

ـــــ سأشتري تسعة رؤوس من الغنم هذه المرّة.. وربّما أكثر..

ـــــ تسعة؟

ـــــ نعم.. تسعة.. الحمد الله.. لديّ ما يكفي من الفلوس..

ـــــ الله يكثّر خيرك..

يبتسم لها. عندئذ، تزداد تأكّدًا ممّا لاحظته منذ قليل، وهو أنّ البشير صار أكثر لطفًا ورقّة في سلوكه منذ اللحظة التي قدّمت له فيها كأس الشاي. بعد تردّد قصير، تقول بشيء من الجرأة:

ـــــ ولكنّ.. لا يمكن أن أعتني وحدي بتسعة رؤوس..

ـــــ لا تخافي.. سوف لا تبقى معنا وقتًا طويلاً.. سأبيعها حالما تسمن قليلاً.

لا يريد أن تغضب مبروكة أو يتعكّر مزاجها. وهو يشعر بعد كلّ ما حدث له منذ حين برغبة شديدة في أن تكون قريبة منه وفي أحسن حال..

ـــــ اطمئنّي.. لن تبقى عندنا أكثر من ثلاثة شهور أو أربعة..

مبروكة تبذل كلّ ما في وسعها لمساعدته منذ أن باع للمولدي الحانوت مصدر الإشاعة وصار يتاجر بالغنم. فهي تعتني دائمًا بالشياه التي يشتريها، وتفعل كلّ ما في مقدورها لتسمن بسرعة. وبالرّغم من أنّ أعباءها في المنزل كثيرة، فإنّها لم تشتك أبدًا ولم تُبدِ أيّ تبرُّم بما كانت تفعل. ولولاها لما استطاع أن يجمع هذه الثروة المتواضعة التي بدأت تثير الحسد في الدوّار حتى إنّ البعض تجرّأ بعد الثورة وصار يردّد أنّه كان قوّادًا للحكومة في حفوز في العهد البائد.

ـــــ وأين ستبيعها بعد أن تسمن؟

ـــــ الأسواق كثيرة.. يمكن أن أبيعها في حفوز..

ـــــ الأحسن أن تبيعها في سوق آخر.. سوق أبعد..

ـــــ أيّ سوق؟

ـــــ الهوارب.. أو مكثر..

ـــــ الهوارب سوق نحسة.. ولا مرّة ربحت فيها شيئًا.. أمّا مكثر فقد سمعت أنّ فيها مشاكل خطيرة..

تنتبه إلى أنّها تكلّمت كثيرًا وبالغت في الاستفادة من لطف البشير،

فتسكت. ومرّة أخرى، تتوجّه إلى الكانون وتشرع في إعداد الشاي من جديد. تملأ الإبريق بالماء. وبعد أن تضيف إليه بضع ملاعق من الشاي والسكّر وقليلاً من النعناع، تضعه على الجمر. يراقبها بإعجاب. لم يشعر طوال الأعوام التي أمضاها معها أنّه يحبّها مثلما يحبّها الآن، بل ولم يكن يتصوّر أنّ من الممكن أن يتعلّق بها إلى هذا الحدّ. تبدو له بعد فترة طويلة من الزواج أنجبت له خلالها ثلاثة ذكور وأربع إناث، أجمل من أيّ وقت مضى. ازدادت سمنة، وصارت تشبه عمّتها التي يعترف لها الجميع بالجمال.

لو لم يكن متعبًا لأمرها بأن تدنو منه فوزًا وبطحها مرّة أخرى على الزربيّة وارتمى عليها.. من المؤكّد أنّها ستبتهج عندما ترى أنّه لا يزال يشتهيها إلى هذا الحدّ. أمّا هو، فسيزداد تأكّدًا وهو جاثم فوقها بكلّ جسده أنّ مبروكة له. له وحده. وأنّ حكاية الحانوت لم تغيّر شيئًا. وقد يذهب في أحاسيسه إلى أبعد من ذلك، فتغدو مسألة رؤية مصطفى المحتملة لأنوثتها تافهة أو لا تستحقّ كلّ هذا الاهتمام، طالما أنّ مبروكة كانت وستظلّ له وحده. يمتلك كلّ ما فيها ويتمتّع بكلّ ما فيها. متى شاء وكيفما شاء.

يستعيد ما حدث في تلك الليلة البعيدة. بيد أنّه لا يتوقّف عند كلّ شيء. يمرّ بسرعة على اللحظات التي عجز فيها عن أداء مهمّته وكلّ ما رافقها من خوف وارتباك وخجل. فما يهمّه هو ما حدث بعد خروج مصطفى من الغرفة. ما يهمّه الآن هو كيف باشرها بطريقة لا يقدر عليها سوى الفحول. نعم. الفحول. يذكر ذلك بوضوح كما لو أنّه وقع البارحة. يذكر كيف دخلها في رمشة عين. لم يترك شيئًا من نفسه خارجها. دخلها إلى أبعد نقطة فيها. حين استوى فوقها وضغط بكلّ ثقل جسده، أحسّ أنّ لحمها الطري ينفطر تحته، وأنّ عظامها تطقطق.. فكيف يقول أبناء الكلب إنّ مصطفى هو الذي باشرها؟ كيف يروّجون هذه الإشاعة بعد كلّ الذي حدث؟

عندما تعود مبروكة إلى مكانها، يقول لها:

ـــــ السوق البعيد ليس دائمًا الأفضل..

يضيف، بعد برهة كي يُظهر لها أنّه لا يستهين بما قالته منذ حين عن الأسواق:

ـــــ ذات مرّة، بعت ثلاثة رؤوس في مكثر.. ما ثمّة سوق أبعد من مكثر.. وماذا ربحت؟.. ربحت ثلاثة دنانير على الرأس..

تنظر إليه دون أن تتكلّم. الحقيقة، أنّها لا تفهم في التجارة ولا تعرف

شيئًا عن أسواق الماشية. وما قالته منذ لحظات كان لمجرّد المشاركة في الحديث وانتهاز الفرصة التي يتيحها لها، فهو نادرًا ما يتكلّم معها في هذا الموضوع.

ـــــ ثلاثة دنانير فقط.. بعد كلّ التعب.. تصوَّري تسعة دنانير على الثلاثة رؤوس.. كانت رخيصة لمَّا اشتريتها.. وكنت متأكّدًا من أنّها غير مريضة.. كنت أظنّ أنّي سأربح منها كثيرًا..

ـــــ ولا مرّة غشّوك؟

ـــــ يغشُّونني أنا؟.. أبدًا..

بعد برهة، تسأله:

ـــــ وكيف تعرف أنّ الشاة غير مريضة؟

ـــــ من أسنانها.. ومن عينيها.. ومن بعرها؟

ـــــ من بعرها؟

ـــــ آ.. من بعرها.. من لونه أعرف أنّها مريضة أو شارفة..

تنظر إليه بإعجاب. يتابع بلهجة متباهية:

ـــــ لا أحد يقدر أن يغشّني.. لا أحد.. لا أشتري الشاة إلاّ بعد أن أقلّبها.. وأجسّ كلّ ما فيها.. أجسّ بطنها.. ظهرها.. قوائمها.. رأسها.. وحتى ما تحت إليتها..

تطأطئ مبروكة رأسها وتضمّ ذراعيها وتتجمّد في مكانها. يفطن عندئذ إلى أنّه تحمّس أكثر من اللازم، فقال كلامًا ما كان ينبغي أن يقوله بمثل هذا الوضوح، بل ما كان يجب أن يقوله أصلاً. لقد أراد أن يبيّن لها أنّه أكثر ذكاء وخبرة ودهاء ممّا يعتقد الجميع كي تزداد إعجابًا به. لكن ها هو يفسد كلّ شيء باندفاعه الأخرق وحماسه وعجزه عن التحكّم في نفسه. إلاّ أنّ ما يضايقه حقًّا هو أنّ كلامه عن تقليبه للشياه وجسّه لأعضائها التناسليّة يذكّره لسبب غامض بما يحاول أن ينساه بكلّ الوسائل المتاحة، وهو أنّ مصطفى قد يكون رأى شيئًا ما من أنوثة زوجته. وخوفًا من أن يغرق من جديد في بحر هذه الأحاسيس والهواجس والأفكار المكدّرة، يقول مغيّرًا موضوع الحديث:

ـــــ شاي اليوم لذيذ..

يعاوده قليل من الارتياح وهو يرى مبروكة ترفع رأسها وتبادله النظر، قبل أن تسكب من الإبريق قليلاً من الشاي في الكأس وتتذوّقه لمعرفة ما إذا صار جاهزًا للشرب.

ـــــ مرّ قليلاً.. لكنّه لذيذ..

ـــــ تريد أن أزيد في السكّر؟

ـــــ لا.. الشاي المرّ أفضل..

تقول وهي تضع الإبريق على الطبق:

ـــــ أنا أحبّ الحلو..

ـــــ وأنا مثلك.. لكنّ الشاي لا بدّ أن يكون مُرًّا وقويًّا كالشاي الذي كان يشربه أجدادنا..

ـــــ القويّ مضرّ..

ـــــ بالعكس.. الشاي الذي نشربه الآن هو المضرّ..

تملأ الكأس وتقدّمه له. يتناول منه رشفة واحدة، ويقول:

ـــــ الشاي الذي يشربه الناس الآن حلو كالعسل.. وما ثمّة شيء أخطر على بدن البني آدم من السكّر..

يتزايد إحساسه بالارتياح عندما يلاحظ أنّ الموضوع الذي أثاره يسترعي انتباهها، ويتيح له الفرصة لإبراز علمه وفهمه للأمور.

ـــــ السكّر مضرّ.. قالوا هذا في الإذاعة عدّة مرّات.. والإذاعة لا تكذب.. كما تعرفين..

يعبر ذهنه للحظة خاطفة ما صار يردّده الناس عن الإذاعة من أنّها كانت قبل الثورة تكذب دائمًا.

ـــــ ما كنت أعرف أنّ السكّر مضرّ..

ـــــ مضرّ إذا كان أكثر من اللازم.. أجدادنا كانوا صحاح الأبدان.. نادرًا ما كانوا يمرضون.. والسبب أنّهم لا يكثرون من السكّر..

تحرّك رأسها للتعبير عن اقتناعها بكلامه. يرفع البشير كأسه إلى فمه، ويشرع في ترشّف ما تبقّى فيه من الشاي بمتعة واضحة.

يرفع البشير رأسه، ويبحلق في الظلام مرّة أخرى.

مبروكة مضطجعة بجواره. يجرّ جسده صوبها. ثم يصغي إلى شخيرها الخافت آملاً أن يساعده ذلك على الانخراط في النوم. بعد ساعات قليلة سيطلع الفجر. ولا بدّ أن ينام قليلاً كي لا يذهب إلى سوق حاجب العيون وهو متعب. سيشتري عدّة رؤوس من الغنم هذه المرّة. المهمّة تحتاج إلى الكثير من التركيز والانتباه. لذا ينبغي أن يكون في حال جيّدة لكي يقوم بها على أكمل وجه.

يغمض عينيه، ويدس رأسه تحت الغطاء.. ثم يشرع في تذكُّر أحداث قديمة، وهو ما يلجأ إليه في أغلب الأحيان حين يجافيه النوم. وعندما يدرك بعد لحظات طويلة أنّ ذلك لا ينفع، يقرّر أن يترك الفراش. يرتدي ثيابه على ضوء شمعة، ثم يخرج على أطراف أصابعه كي لا يوقظ مبروكة. البرد في الخارج ليس شديدًا مثلما كان ينصوَّر. يرفع رأسه ويتطلّع إلى السماء. منذ فترة لم يشاهدها في مثل هذا الصفاء والجمال. النجوم الصغيرة تتلامع في كلّ مكان. والقمر المكتمل يتوهّج بنوره البهيّ. أمّا الأشجار وأسيجة الصبّار والبيوت والحقول القريبة منه، فهي تتبدّى له واضحة ونظيفة كما لو أنّها اغتسلت بضوء القمر.

الغريب أنّه لم يعد يشعر بأيّ تعب. حتى الوجع الخفيف الذي كان يحس به في عينيه قبل أن يخرج زال تمامًا. أكثر من هذا، يدرك بعد لحظات قليلة وهو يستنشق هواء الليل النقيّ ويخطو بضع خطوات أنّه في حال جيّدة. مزاجه رائق. وجسده الخفيف كالريشة يتدفّق نشاطًا وحيويّة. كأنّه استيقظ لتوّه من نوم طويل عميق. ليس سوق حاجب العيون من الأسواق البعيدة؛ والذهاب إليه بالبوسطة لا يستغرق وقتًا طويلاً. ومع ذلك، يقرّر ألاّ يتباطأ كثيرًا وأن يتوجّه إلى حفوز حيث محطّة الحافلات. سيركب أوّل بوسطة. هكذا سيكون من أوائل الذين يصلون إلى السوق، وربّما أوّل تاجر تطأ قدماه في هذا اليوم أرض الرحبة حيث تُباع الماشية. قد يستفيد من ذلك، فهناك فلاّحون يقصدون السوق لبيع أغنامهم قبل أن يطلع الفجر وتمتلئ الرحبة بالماشية.

إلاّ أنّه بدلاً من أن يسلك أقصر طريق عبر الحقول، وهو ما يفعله حين يكون مستعجلاً، يسير في الطريق الذي يشقّ الدوّار من شرقه إلى غربه. وأوّل بيت يمرّ به هو بيت حامد. ينتبه وهو يبتعد عنه إلى أنّه لم يشتر لمنوبيّة وحامد أي شيء منذ فترة طويلة. إن كانت السوق جيّدة

وتمّت الأمور كما يود، سيشتري لهما من الشاي والسكّر ما يكفيهما لعدّة أسابيع. وقد يشتري لهما أيضًا قليلاً من اللحم إن كان سعره غير باهظ، فهما لم يأكلا لحمًا منذ مدّة.

وهناك أشياء أخرى يجب ألاّ ينساها. تسع أو عشر سجائر وحقّ صغير من النفة المعطّرة لصهره، فهو لا يزال يقبل رغم تقدُّمه في السنّ على مثل هذه المتع الصغيرة، بل إنّه كلّما تقدّم في العمر ازداد إقبالاً عليها خصوصًا التدخين الذي يعتبره، باستثناء الشاي بالطبع، أفضل ما أنعم به الله على عباده من ملذّات الدنيا. أمّا منوبيّة، فستكون سعيدة حين يشتري لها حفنة أو حفنتين من علكة اللبان.

يحبّ حامد، فهو رجل عاقل وطيّب ومهذّب كما أنّه صهر رائع. لم يتدخّل مرّة واحدة في حياته منذ أن تزوّج ابنته. وهناك سبب آخر يجعله يحترمه ويجلّه، وهو أنّه هو الذي ختنه، وإن كان لا بدّ من الاعتراف بأنّ عمليّة ختانه لم تكن سهلة خلافًا لعمليّات ختان كلّ الصبية في الدوّار. إنّه لا يزال يتذكّرها بكلّ تفاصيلها. ومن المؤكّد أنّه لن ينساها أبدًا. يذكر أنّهم فرشوا له حصيرًا تحت زيتونة، فقد كان الحرّ داخل البيوت لا يُطاق. والهواء يكاد يكون مقطوعًا. وجاء رجلان وأمسكا بذراعيه وساقيه المفتوحتين كي لا يتحرّك. كان قد كبر وصار رجلاً، كما تردّد أمّه منذ الصباح لتطمينه والتخفيف من الرعب الذي كان يستولي عليه. لا يدري إلى حدّ الآن لماذا تأخّروا كثيرًا في ختانه. كلّ ما يعرفه هو أنّه لم يختن في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأولى مثل كلّ الأطفال. لم يفلح حامد في ختانه من ضربة المقص الأولى ولا من الثانية. سبّب له أوجاعًا شديدة خصوصًا في المرّة الثالثة، لأنّ جلد قلفته لم يعد ناعمًا كما قال. لم يكن يخطر ببال حامد آنذاك بالطبع أنّه يختن الطفل الذي سيصبح فيما بعد صهره، وأنّ العضو الصغير الذي كان بين يديه سيباشر بعد عدّة أعوام ابنته مبروكة. لو كان يعرف لكان أكثر رقّة وحذرًا حين قطع قلفته!

بعد مسافة قصيرة اجتازها بسرعة خوفًا من أن تهجم عليه الكلاب التي أخذت تنبح، يصل إلى بيت مصطفى الذي لا تفصله عن الطريق سوى خطوات قليلة. تبدو له الساحة الأماميّة تحت ضوء القمر أكثر اتّساعًا. في أحد أركانها كومة ضخمة من شُجيرات الإكليل والعرعر عليها زنابيل قديمة. محبوبة هي التي اقتطعت هذه الشجيرات من الأحراج النائية، وجلبتها على ظهرها لاستعمالها حطبًا للطبخ بعد أن تجفّ.

يتذكّر من جديد لقاءه الأخير بمصطفى. لم يكن يتوقّع أن يحدّثه

عن أعوام الطفولة البعيدة، وخصوصًا أن يسأله عمَّا إذا كان لا يزال يذكر ما كانا يفعلانه تحت شجرة الخرُّوب بعد أن يطردا كلّ الأطفال ويبقيا وحدهما في المكان. يدرك الآن أنَّ مصطفى كان جريئًا أكثر من اللازم، وأنَّ جرأته هذه لم تكن طبيعيَّة وإنَّما مجرَّد قناع لإخفاء ما كان يعتريه من اضطراب وتوتُّر. طبعًا، لا يزال يتذكَّر ما كانا يقومان به في تلك الأعوام تحت تلك الشجرة. فمثل هذه الأشياء تظلّ ماثلة في الذاكرة طول الحياة. لم ينس اللحظات الطويلة التي كانا يقضيانها في المقارنة بين جسديهما. لم ينس أيضًا المرَّة التي عزما فيها على أن يطأ كلاهما الآخر.

ينتابه إحساس بالخجل كلَّما تذكَّر ذلك. ومن حسن الحظّ أنَّ مصطفى، الذي وافق بعد نقاش طويل على أن يكون أوَّل من يمنح نفسه، تراجع عن ذلك في اللحظة الحاسمة. لو لم يتراجع لظلّ البشير نادمًا على فعلته إلى حدّ الآن، لا لأنَّ هذه الفعلة شنيعة فهما لم يكونا واعيين تمامًا بخطورة الأمر بحكم صغر سنّهما، وإنَّما لأنَّه قرَّر أن يخدع مصطفى وألاَّ يمكِّنه من نفسه عندما يحين دوره.

بين بيت مصطفى وبيت أحد إخوة محبوبة أرض مهملة لا يحدّها أيّ سياج، وتقوم في وسطها شجرة زيتون هرمة تبدو في الليل مثل خيمة كبيرة نُصبت هناك منذ الأزل. يتّسع الطريق وتتفرَّع عنه مسارب تؤدّي إلى البيوت المتناثرة حول الأرض المهملة. عندما يعبرها ويصل إلى قلب الدوَّار يرتفع نباح الكلاب من جديد. يسرع الخطى خوفًا من أن يتواصل النباح ويشتدّ، فيستيقظ الرجال ويخرجون من بيوتهم فيفسدون متعته بهذه الجولة الليليَّة. يبلغ الطرف الآخر من الدوَّار حيث بيت البزِّي، فيشعر برغبة في الخروج من الطريق والسير في الحقول. إلاَّ أنَّه لا يفعل كي لا يتلوَّث حذاؤه الذي يحرص دائمًا على أن يبقى نظيفًا كلَّما ذهب إلى السوق.

تسري في جسده ارتعاشة خفيفة عندما يشاهد الحانوت. إنَّها المرَّة الأولى التي يقترب منه إلى هذا الحدّ منذ أن راجت الإشاعة. كان الحانوت ملكًا له، وباعه للمولدي حين قرَّر أن ينتقل إلى تجارة الغنم. كان شكله الخارجي أجمل وأنظف ممَّا هو عليه الآن، فقد كان شديد الاعتناء به خصوصًا في الأعوام الأولى. كان يدهن بابه وشبَّاكه ويطلي جدرانه بالكلس كلّ عام. يذكر أنَّه فكَّر طويلاً واستشار العديد من الناس قبل أن يختار الموقع الذي شيَّده فيه. كان يريده منزويًا وبعيدًا عن بيوت الدوَّار، لأنَّ الحانوت مكان للسهر واللهو والقمار وأحيانًا للسكر والعربدة والخصومات؛ وفي الوقت ذاته، يريده قريبًا من الطريق كي يستطيع الرجال التردُّد عليه بسهولة.

منذ فترة طويلة لم تطأ قدماه الحانوت. ينتبه وهو يثبت بصره على الباب والشبّاك الموصدين إلى أنّه لم يكن خاليًا مثلما كان يتصوَّر. ثمّة ضوء خفيف في الداخل. يتوقّف ويصغي للحظة، لكنّه لا يسمع شيئًا. يزداد اقترابًا من الحانوت فتتناهى إليه أصوات خافتة. يختفي وراء جذع شجرة، ويصغي من جديد محاولاً أن يعرف من هم هؤلاء الرجال الذين لم يعودوا إلى بيوتهم في ذلك الوقت المتأخّر من خلال أصواتهم.

يتبيَّن صوت المولدي ثم صوت أكبر إخوة محبوبة، ثم صوتًا ثالثًا سبق أن سمعه لكنّه لا يدري لمن! الأصوات توحي بأنّهم لا يلعبون الورق أو يقامرون وإنّما يتحدّثون بشيء من الحماس. والموضوع الذي يخوضون فيه مهمّ على ما يبدو. وفيما كان يتساءل عمّا يمكن أن يشغل أذهانهم في مثل تلك الساعة، يرتفع فجأة صوت أحدهم. لم يسمع ما قاله، لكن كلّ ما في الصوت يدفعه إلى الاعتقاد بأنّه شتيمة أو تعبير عن غضب أو تبرُّم أو شيء من هذا القبيل. أمّا صاحب الصوت، فهو أكبر إخوة محبوبة.

لا يستغرب ذلك، فالخصومات والمشاجرات وتبادل الشتائم التي تنتشر أخبارها تكاد تكون يوميّة في الحانوت. وقد تزايدت بعد الثورة. وفي بعض الأحيان، تتحوّل إلى عراك بالأيدي والأحذية وحتى بالعصيّ، خصوصًا حين يخوضون في أمور لها علاقة بالسياسة وبالأحزاب التي تكاثرت في الشهور الأخيرة وصاروا يتحدّثون عنها كلّ يوم في نشرات الأخبار.

وتزداد الأمور تعقيدًا حين يكون المتخاصمون سكارى، وهو أمر قليل الحدوث لحسن الحظّ؛ فالحصول على الخمر صعب ويحتاج إلى الكثير من الحذر والسرّيّة حتى بعد الثورة، لأنّ بيعها ممنوع في الحوانيت.

وفي اللحظة التي يستعدّ لمغادرة المكان ينفتح الباب بغتة. يخرج أخو محبوبة يتبعه الرجل الذي لم يفلح في تحديد هويّته منذ حين، وهو بائع خضر من أحد الدواوير المجاورة يُقال إنّه صار متحمّسًا للثورة، وإنّه يدافع عن أحد الأحزاب بالرّغم من أنّه لا يعرف كوعه من بوعه. يسيران معًا وهما يتهامسان كما لو أنّهما يتبادلان أسرارًا خطيرة. وعندما يبلغان الطريق يفترقان.

يخرج المولدي بعد وقت قصير. يخطو بضع خطوات أمام الحانوت ثم يقف ويرفع رأسه إلى السماء. يبدو له أكثر نحافة من قبل. منذ مدّة لم يقابله، فهو بحكم عمله في الحانوت لا يعيش تمامًا مثل الآخرين، إذ إنّه يعمل في الليل ويقضي جزءًا هامًّا من النهار في النوم. المولدي هو أيضًا

متحمّس للثورة ويدافع عن أحد الأحزاب. لم يستغرب البشير ذلك عندما بلغه الخبر، فالمولدي ذكي ويهتمّ بالسياسة. أكثر من هذا، أحسّ بشيء من الفخر بأنّ له صديقًا يفهم في أمور الثورة.

كان من أعزّ أصدقائه في أعوام الطفولة. صحيح أنّه لم يكن يحبّه مثلما كان يحبّ مصطفى، لكنّه كان يرتاح له كثيرًا إلى درجة أنّ مصطفى كان يحسد المولدي على ذلك. كان معجبًا بشجاعته في المعارك التي كانت تنشب من حين إلى آخر بين أطفال دوّارهم وأطفال الدواوير المجاورة، وبطريقته في رواية الحكايات، وبجرأته في التعامل مع البنات. أحيانًا، كان يقترح على مصطفى أن يبقى معهما تحت شجرة الخرّوب للمشاركة في ألعابهما الجنسيّة. لكنّ مصطفى كان يصرّ على طرده مثل الأطفال الآخرين.

وعندما كبرا تغيّرت علاقتهما. ازداد البشير قربًا من مصطفى ولم يعد يفارقه. وشيئًا فشيئًا ابتعد عن المولدي، إلاّ أنّ ذلك لم يقض على صداقتهما. ولهذا السبب، فضّله على كلّ الذين تقدّموا لشراء حانوته حين عرضه للبيع. وعندما بلغه فيما بعد أنّ المولدي اشتكى ذات مرّة من أنّه باع له الحانوت بسعر باهظ لم يردّ عليه. ظلّ يتصرّف معه كما لو أنّه لم يسمع شيئًا بالرّغم من أنّه استاء من هذا الكلام.

يشعل المولدي سيجارة ويشرع في تدخينها. يطوف بالحانوت، ثم يعود إلى مكانه، ويتطلّع من جديد إلى السماء. كان واضحا أنّه مشوّش الذهن وأنّ أمرًا ما يحيّره. لعلّه تخاصم مع الرجلين اللذين كانا في الحانوت. وربّما اضطر إلى طردهما، لأنّهما تلكآ أكثر من اللازم في مغادرة المكان. وهو الآن نادم على ما فعل. إنّه يعرف جيّدًا هذا الإحساس، فقد كان ينتابه أثناء اشتغاله في الحانوت حين يجد نفسه مرغمًا على طرد بعض الأوباش والأجلاف ذوي النفوس الثقيلة ليتمكّن من إغلاقه والاستسلام للنوم. لا يغادر المكان إلاّ عندما يدخل المولدي الحانوت ويغلق بابه. وحالما يعود إلى الطريق، يتحسّس رزمة الفلوس الثقيلة التي كان قد دسّها في جيب صدريّته ليتأكّد مرّة أخرى من أنّه لم ينسها في البيت.

ـــــ لا بدَّ أن تقتله..

ـــــ أقتله؟.. أقتل من؟

ـــــ مصطفى.. ابن الكلب..

لا يكاد حامد يصدّق أذنيه. لم يكن يتصوَّر أنَّ منوبيَّة ستثير موضوع حكاية الحانوت في تلك اللحظات الجميلة التي استسلما فيها لتذكُّر الأعوام الأولى من زواجهما، وهو ما يفعلانه بين الحين والآخر حين يتعبان من الخصام ويكونان في حالة ونام وانسجام. إلاَّ أنَّ ما يذهله حقًّا هو هذا الذي تريد أن يفعله بمصطفى. ألا تعرف أنَّ القتل حرام؟ وحتى لو لم يكن حرامًا، فكيف تطلب منه ذلك؟ هل هو قادر على قتل نفس بشريَّة؟ ألا تدري بعد كلّ السنين التي عاشتها معه أنَّه عاجز تمامًا عن ذلك؟ ثم كيف تفكّر في هذا أصلاً؟ كيف تسمح لفكرة غريبة ومرعبة كهذه أن تراودها؟ وبالرَّغم من أنَّه موقن من أنَّ ما قالته ليس مزاحًا، يتظاهر بأنَّه لا يأخذ كلامها على محمل الجدّ. يسيطر على انفعاله ويبتسم. لا بدَّ أن يبدو أمامها هادئًا غير عابئ بما سمع.

ـــــ هل تظنّ أنَّني أمزح؟

ـــــ نعم..

تتفرَّس في وجهه للحظة، وتقول:

ـــــ لا أمزح.. لا بدَّ أن يُقتل.. لا بدَّ أن يُقتل..

تجتاحه رغبة قويَّة في أن يأمرها بأن تكفّ فورًا عن هذا الهذر. غير أنَّه لا ينبس بكلمة.

ـــــ إنَّه يستحقّ القتل.. ابن القحبة..

تسكت وتتراجع بجذعها ضامَّة ركبتيها. يتطلَّع إلى الخارج من خلال الشبَّاك الواطئ. لم يعد بمقدوره أن يرى شيئًا الآن. لا شجرة التوت التي تقوم في نهاية الحوش، ولا سياج الصبَّار الذي يوجد خلفها، ولا قمَّة جبل طرزة. لقد أرخى الليل سدوله وعمّ الظلام كلّ مكان، رغم أنَّه لم يمض وقت طويل على غروب الشمس. وفيما يتساءل عمَّا إذا كان من المجدي أن يقول شيئًا ليوحي لها بأنَّه يرغب في العودة إلى تذكُّر سنوات زواجهما الأولى، تندفع فجأة واقفة وتغادر الغرفة. يخطر بباله للوهلة الأولى أنَّها خرجت لقضاء حاجتها. وعندما يرهف السمع فيما بعد، يُدرك أنَّها توجَّهت إلى الغرفة المجاورة وأنَّها منهمكة في القيام بشيء ما.

لا شيء في البيت تحبه مثلما تحب هذه الغرفة. تتردّد عليها كثيرًا وتقضي فيها وقتًا طويلاً كلّ يوم، فهي بمثابة مطبخ ومخزن للمؤونة ومستودع للأواني والأدوات وكلّ الأشياء القديمة التي لم تعد صالحة للاستعمال. هو أيضًا يحبّها. وبين الفينة والأخرى، يحلو له أن يجلس فيها على الحصير وسط أكياس القمح والشعير وخوابي الزيت، لأنّها تذكّره ببيتهما القديم الذي يتكوّن من غرفة واحدة.

لكنّ ما الذي دفعها الآن إلى الخروج بمثل هذه السرعة والتوجُّه إلى الغرفة المجاورة؟ ثم ماذا تفعل هناك في مثل هذا الوقت؟ هل تعدّ العشاء ؟ لكنّ الوقت ليس وقت عشاء، فضلاً عن أنّه ليس هناك ما يستوجب الإعداد. فهما سيتناولان بالتأكيد ما فضل من طعام الغداء. والأمر لا يحتاج إلاّ إلى عمليّة تسخين على البابور لن تستغرق أكثر من بضع دقائق.

تجتاحه الرغبة في التجسُّس عليها. ينهض على الفور. يتقدّم من الغرفة بحذر شديد. ومن حسن الحظّ أنّ شبّاكها الوحيد كان مفتوحًا. ينحني إلى أقصى حدّ ممكن غير عابئ بما يسبّبه له ذلك من وجع في الظهر، ثم يحبس أنفاسه ويرفع رأسه لينظر إلى الداخل. كانت واقفة أمام الرفّ الذي توضع فوقه أواني الطعام. بين الحين والآخر تمسك بملعقة أو صحن أو مثرد. تتفحّصه على ضوء الشمعة، ثم تُعيده إلى مكانه.

يرقبها باستغراب. ماذا يجول في ذهنها في هذه اللحظات؟ ثم هل هناك علاقة ما بين هذا التصرُّف المحيّر وما قالته منذ حين عن مصطفى. يعود بسرعة إلى مكانه خوفًا من أن تنتبه إلى وجوده. وحالما يشرع في التفكير في ما شاهده في الغرفة المجاورة يتفاجأ بها منتصبة عند الباب، كأنّها جنّيّة هبطت عليه من السماء. ينتابه الخوف، فيستغفر الله في سرّه. وحين تجلس بجواره، يقول:

ـــــ الدنيا أظلمت..

ـــــ آ..

ـــــ أغلقت الشبّاك؟

ـــــ نعم..

ـــــ والشمعة.. أطفأتها؟

ـــــ نعم..

في العادة، لا تُجيب عن هذا النوع من الأسئلة. تكتفي بالصمت. أو تنتهز الفرصة لتستهزئ به، فهي تعتقد أنّ امرأة مثلها لا يمكنها أن تنسى القيام بما يجب أن تقوم به، وأنّها لا تحتاج بالتالي إلى أن يذكّرها أحد

بهذا. يرتاح حامد لذلك. لكنَّ هذا الارتياح سرعان ما تلاشى.

ـــــ كيف عرفت أنَّني أشعلت شمعة؟

ـــــ ألم تكوني في الغرفة؟

ـــــ نعم.. ولكن كيف عرفت أنَّني أشعلت شمعة؟

ـــــ الدنيا ليل.. ولا بدَّ من الضوء.. لا أحد يرى في الظلام.

تهزّ رأسها وتصمت. يفكّر في أنَّه كان محظوظًا هذه المرّة، فقد تمكّن بسهولة من التخلُّص من هذه الورطة التي أوقع نفسه فيها عندما سألها عن الشمعة. عليه أن يضاعف من حذره في مثل هذه الحالات لتجنُّب هذه الأخطاء السخيفة.

ـــــ لا شيء في هذه الدنيا أسهل من القتل.. والله العظيم.

تقول بهدوء عجيب. يستدير إليها مندهشًا. تضيف:

ـــــ الناس يتصوَّرون أنَّ القتل شيء صعب..

ـــــ لعنة الله على الشيطان الرجيم..

تبتسم. يحاول أن يبتسم بدوره. بيد أنَّه لا يستطيع.

ـــــ البني آدم كالذبابة.. وقتله أسهل بكثير ممّا يظنّ الناس..

ـــــ أستغفر الله العظيم..

ـــــ سهل مثل شربة ماء..

ـــــ القتل حرام.

ـــــ أعرف.

ـــــ والذي يقتل روحًا يدخل جهنَّم.. وتحرقه النار.

ـــــ آ..

تسكت برهة، ثم تتابع:

ـــــ روح البني آدم خفيفة كالريشة.. ورقيقة كالفخَّار.

ـــــ ربِّي سبحانه خلقنا هكذا..

تضحك. ينزعج من ضحكها. لكنَّها لا تبالي بذلك.

ـــــ ذات مرَّة، كدت أقتل امرأة في الواد!

ينعقد لسانه من الرعب ويتجمَّد في مكانه.

ـــــ امرأة طويلة بشعة من دوَّار الجريرات.. رأسها كبير كالسطل، وأنفها أفطس، ورقبتها عريضة مثل رقبة ثور.. في كلّ مرَّة أذهب إلى الواد

لغسل الصوف أو جلب الماء أو الطين، أجدها هناك. دائمًا تسبّ وتشتم. لا أحد يقترب منها من شدّة الخوف. ذات يوم تخاصمنا. نسيت السبب. شتمتني فلم أسكت عليها. تشجّعت وشتمتها بصوت عال وأمام كلّ النساء..

قبضت عليّ كالفرُوج. ومزغت رأسي في الوحل. وبعد أن ضربتني عرّتني، وغرفت حفنة من التراب ودسّته في الواحد متاعي.. تحمّلت العار. ولكنْ من وقتها قرّرت أن أذلّها كما أذلّتني. كنت أعرف أنّها أقوى منّي وأنّه لا بدّ أن أخاتلها.. ذات مرّة، لاحظت أنّها تعبت من غسل الصوف. جلست على الأرض لترتاح. في العادة لا ترتاح، لأنّها لا تتعب بنت الكلب. جريت كالمهبولة. ما فكّرت في أيّ شيء. وما شعرت بأيّ خوف. ارتميت عليها كالقطّ وأمسكت رقبتها بيديّ الاثنتين، وضغطت عليها. بدأت تصيح، وأرادت أن تقوم فما قدرت. حاولت أن تحرّك رأسها وصدرها لتبعدني عنها. لكنّي بقيت فوقها كالقزادة. وضغطت أكثر على رقبتها. كثر الصياح حولنا. خمدت هي وما عادت تتحرّك. لو واصلت الضغط لماتت. في الحقيقة، ما كان في نيّتي أن أقتلها. كنت أريد أن أذلّها. هبطت عليّ أيد كثيرة. أمسكت بكتفي وصدري ورأسي وجرّتني بقوّة إلى الوراء..

ـــــ ومتى حدث هذا؟

ـــــ من مدّة طويلة.. قبل أن تخطبني.

ـــــ الحمد الله أنّك لم تفعلي هذا بعد أن تزوّجتك.

ـــــ بعد الزواج، صرت عاقلة..

ـــــ عاقلة؟

ـــــ نعم.. قبل أن تخطبني كنت أتعارك مع الناس كلّ يوم.

يُدرك حامد أنّ الفرصة مناسبة لتبديل منحى الحديث.

ـــــ أتذكّرك جيّدًا عندما كنتِ طفلة..

ـــــ كيف كنت؟

ـــــ كنت نحيلة كعود برواق.

ـــــ لكنْ كنت جميلة..

ـــــ نعم..

ـــــ كنت من أجمل النساء في الدوّار..

ـــــ آ..

تدفعه قليلاً بكتفها لمداعبته، وتقول:

ـــــ لا أدري لماذا قبلتك لما خطبتني!

ـــــ قبلتِ لأنّي كنت من أحسن الرجال في الدوّار..

تحرّك رأسها باستهزاء، فيضيف بحماس:

ـــــ أنا أيضًا كنت جميلاً..

ـــــ كنت جميلاً؟.. كنت أسود كالعبد.. هل تذكر ماذا كانوا يسمُّونك؟

ـــــ لا..

ـــــ الغراب..

تضحك. يضحك بدوره. وحين تكفّ عن الضحك، تستوي في جلستها. وبعد وقت قصير، تنهض وتتوجّه إلى الباب.

وقبل أن تخرج، تقول دون أن تلتفت إليه:

ـــــ لا بدَّ أن تقتله..

البشير عازم على أن يعرف الحقيقة اليوم.

هل مصطفى هو الذي أفشى أسرار ليلة الدخلة؟ السؤال يلحّ عليه منذ أن استيقظ. ومن المحتمل جدًا أن يكون هو الذي شوّش نومه وأيقظه في مثل هذا الوقت المبكر. يريد أن يضع حدًا لشكوكه. يريد أن يطمئنّ ويتخلّص من وطأة هذا السؤال إلى الأبد ليتفرّغ إلى أسئلة أخرى. لماذا يتلكّأ ويؤجّل ذلك باستمرار؟ لماذا يعقّد الأمور وهي بسيطة؟ كلّ ما في الأمر هو أن يختار اللحظة المناسبة، وأن يتكلّم بهدوء كي لا يبدو ضعيفًا فيفقد هيبته. ولا بدّ أيضًا أن يختار جيّدًا كلماته ليكون السؤال واضحًا، لكي لا يجد نفسه مضطرًا إلى طرحه مرّة ثانية، وأيضًا لكي يحرم مصطفى من أيّة فرصة للمناورة أو التظاهر بعدم الفهم.

لقد اغتسل وتناول فطوره الذي يحرص على تناوله كلّ صباح، ويتكوّن كالعادة من كأس من اللبن الرائب وبضع حبّات من التمر. واستمع بانتباه إلى نشرة الأخبار. وقد تحدّثوا فيها كالعادة عن الثورة التي لم يعد يخشاها بعد أن تأكّد من أنّها لم تؤثّر سلبًا في حركة تجارة الأغنام، كما خُيّل إليه في البداية، كما تحدّثوا فيها عن شيء غريب لم يسمع به أبدًا من قبل اسمه الديموقراطيّة. الآن، وقد فعل كلّ هذا، عليه أن يشرع في الاستعداد للقاء الذي سيجمعه بمصطفى في هذا الصباح.

يغلق المذياع، ويبدأ في وضع خطّة بسيطة ومحكمة تمكّنه من بلوغ الهدف بسرعة. وعندما ينتهي من ذلك، ينتعل حذاءه ويرتدي برنسه ويلفّ رأسه بالعمامة على عجل. ثم يغادر البيت متوجّهًا إلى الحقل. إنّه حريص هذه المرّة على أن يصل إلى المكان قبل قدوم مصطفى. لذلك خرج في وقت أبكر بقليل من العادة. يريد أن يستقرّ في المكان على مهل، وأن يكون وحيدًا لبضع لحظات كي يستعيد للمرّة الأخيرة خطّته بهدوء.

حين يصل، يتفاجأ بأنّ مصطفى في المكان. كلّ ما من هيئته وطريقته في الجلوس أمام سياج الصبّار يوحي بأنّه كان هناك منذ وقت طويل. يستغرب ذلك. لكنّ ما يضايقه هو أنّ مصطفى تجاوز حدوده في جلسته. صحيح أنّه ترك له كالعادة الجزء الأفضل من المكان الذي يصرّ على الاستئثار به، لأنّه أقلّ عرضة للريح الباردة وأكثر استواء وخال تمامًا من العشب الذي يكون نديًا في الصباح. لكنّه اقترب منه أكثر ممّا يحقّ له. جلس على حافّته ممّا جعل طرف برنسه الطويل يسقط فيه.

من المؤكّد أنّه لم يفعل هذا عمدًا. ولعلّه لم ينتبه إلى أنّ برنسه

تجاوز الحدّ، خصوصًا أنَّه كان وحده في المكان. يدنو البشير من الجزء المخصَّص له. كان يعتقد أنَّ مصطفى سيفطن إلى ذلك حالما يجلس بجواره، وأنَّه سيسحب فورًا طرف برنسه ويتراجع إلى داخل حدوده. إلاَّ أنَّ هذا لم يحدث. يتساءل البشير عندئذ عمَّا إذا كان يجوز أن يُبدي له ملاحظة في بداية الصباح عن أمر من هذا القبيل.

لم يحتج إلى الكثير من التفكير كي يدرك أنَّ ملاحظة كهذه قد تعقِّد المسألة وتقضي على كلّ الخطَّة التي رسمها، والأخطر من هذا قد تحول دون بلوغه الهدف المنشود. ليس من صالحه أن يبدأ هذا اللقاء الحاسم، الذي استعدَّ له طويلاً ويعوِّل عليه كثيرًا لمعرفة الحقيقة بتصرُّف، لا يدري كيف ستكون انعكاساته على مصطفى. من الأفضل أن يحلّ هذه المشكلة الصغيرة بأسلوب مختلف. ثم لينتظر. إنَّه ليس مستعجلاً. لعلّ مصطفى يفطن لذلك فيما بعد وينسحب من تلقاء نفسه. وعلى أيّ حال، إذا لم ينسحب وظلّ جاثمًا في مكانه، فبمقدوره آنذاك أن يميل عليه بين الحين والآخر ويدفعه برفق بكتفه إلى أن يتقهقر خارج حدوده.

ـــــ كنت أظنّ أنّي سأصل قبلك..

ـــــ نهضت باكرًا.

ـــــ منذ متى وأنت هنا؟

ـــــ ساعة.

ـــــ ساعة!.. ساعة كاملة في هذا البرد!

ـــــ آ.. الحقيقة هناك شيء جعلني أخرج باكرًا.

ـــــ ما هو؟

ـــــ تعاركت مع محبوبة..

ـــــ متى؟

ـــــ في الفجر.. لمَّا فتحت عيني.

أيّ أمر دفعهما إلى الخصام في مثل هذا الوقت؟ أوَّل ما يتبادر إلى ذهنه هو أنَّ مصطفى اشتهى محبوبة حالما أفاق من النوم. أيقظها وأراد أن يباشرها، لكنَّها رفضت. أخذ يشتمها فردَّت عليه. إنَّه يعرف هذه الشهوة اللعينة التي تتملَّك الرجل في الفجر عندما يستيقظ. ومن حسن حظِّه أنَّ مبروكة لا تمانع إطلاقًا. حالما يوقظها ويلتصق بها من الخلف، تفهم أنَّ الشهوة أتته فتستدير إليه على الفور.

ـــــ كانت كالمجنونة.. كانت تصيح وتبكي.. لم أتحمَّل ذلك فتركت

لها البيت.

ـــــ لا بدَّ من الصبر مع النساء..

لم يكن مصطفى كئيبًا أو منفعلاً أو مشوَّش الذهن. لا ريب أنَّ الساعة الكاملة التي قضاها وحيدًا في البرد في هذا المكان الهادئ المنعزل قد بدَّدت غضبه. لقد خشي البشير في لحظة ما أن يكون مزاج مصطفى متعكِّرًا بسبب الخصومة مع زوجته، وأن يجد نفسه بالتالي مرغمًا على إدخال شيء من التعديل على خطَّته. لكنْ ليس هناك ما يدعو إلى الخشية. كلّ شيء على ما يرام إلى حدّ الآن. وحتى مشكلة الحدود التي كانت تسبِّب له قليلاً من الإزعاج فقد حلَّت بسرعة لم يكن يتوقَّعها. ففي التفاتة عابرة، يكتشف أنَّ مصطفى تراجع إلى داخل حدوده ساحبًا معه طرف برنسه. إنَّها اللحظة المناسبة للشروع في تنفيذ خطَّته. ولديه ما يكفي من الجرأة للقيام بذلك.

ـــــ الناس الذين يتكلَّمون عنِّي في الحانوت أبناء كلاب..

يقول مصطفى بحماس:

ـــــ آ.. أبناء كلاب.. وأوباش.. وحسَّاد..

يغمر البشير قليل من الفرح، فالخطوة الأولى التي كان يتهيَّبها أُنجزت بسهولة. عليه أن ينتقل الآن إلى المرحلة الثانية من الخطَّة، قبل أن يسأل مصطفى عمَّا إذا كان هو الذي قال لمحبوبة أو لأحد من أقاربه أنَّه واجه بعض الصعوبات ليلة الدخلة، أو أشار، أو لمَح أمامهم إلى ذلك.

ـــــ هناك شيء لم أفهمه.. يا سي مصطفى.

ـــــ ما هو؟

ـــــ الناس الذين يتحدَّثون عنِّي في الحانوت يعرفون..

ـــــ يعرفون ماذا؟

ـــــ يعرفون ما وقع ليلة الدخلة.. كأنَّ الوحي نزل عليهم..

ـــــ آ..

ـــــ أو كأنَّهم كانوا معنا في الغرفة..

يسود الصمت. آن الأوان ليمرّ إلى المرحلة الأخيرة والحاسمة في الخطَّة، ويطرح السؤال الذي أعدَّه بعناية شديدة واستعاده في ذاكرته عدَّة مرَّات. وفي اللحظة التي يهمّ بالكلام، ومضت بغتة في ذهنه فكرة كالبرق. فكرة مهمَّة لم يحسب لها حسابًا. ماذا لو اعترف مصطفى بأنَّه هو الذي كان وراء إشاعة الحانوت؟ ماذا لو اعترف بأنَّه هو الذي أفشى سرّ

الصعوبات؟

في هذه الحالة، سيجد نفسه أمام خيار صعب. إمّا أن يغضّ الطرف، وهذا مستبعد جدًا. وحتى لو فعل ذلك فإنَّ صمته سيكون علامة جبن وضعف. سيفقد هيبته ومكانته أمام مصطفى، فضلاً عن أنَّه سيسبِّب له عذابًا أشدّ ممَّا يعانيه إلى حدّ الآن.

وإمَّا أن يتَّخذ على الفور موقفًا واضحًا يناسب مقامه. وهذا الموقف لن يكون سوى خصومة كبيرة ستنتشر أخبارها بسرعة في الدوَّار. سيستفيد منها الذين يروِّجون حكاية الحانوت. سيعتبرونها دليلاً آخر على أنَّ الحكاية صحيحة.. وهكذا ستزداد المسألة تعقيدًا.

الأمر ليس سهلاً وبسيطًا مثلما كان يظنّ، فقد يؤدّي طرح السؤال الذي يلحّ عليه منذ أن أفاق من النوم إلى العكس ممَّا كان ينتظر. لا بدَّ أن يتريَّث إذن. عليه أن يدرس الموضوع من جديد. وعلى أيّ حال، إنَّه ليس مستعجلاً. والحذر والتروِّي في مثل هذه المسائل أفضل بكثير من التسرُّع والعجلة. وحين يلتفت إلى مصطفى، يكتشف أنَّه يرقبه بحيرة. لا شكّ أنَّه لاحظ توقُّفه المفاجئ عن الحديث، بل وربَّما تبيّن في صوته وعلى وجهه شيئًا من الاضطراب الذي لم يفلح تمامًا في السيطرة عليه. يشرع في البحث عن موضوع للكلام، فيتذكَّر ما سمعه في نشرة الأخبار هذا الصباح.

ـــــ سمعت الأخبار في الإذاعة؟

ـــــ لا..

ـــــ الدنيا تغلي..

ـــــ إن شاء الله خير..

ـــــ قلت لك الدنيا تغلي، وأنت تقول لي إن شاء الله خيرا!.. البارحة وقعت حوادث في قفصة وسيدي بوزيد..

مصطفى لا يفهم في السياسة وفي هذه الأمور التي تحدث بعد الثورة. وهو ليس من المولعين بالاستماع إلى نشرة الأخبار. وحتى إذا استمع إليها، فإنَّه لا يفهم منها إلاّ القليل، إذ إنَّه لم يتعلَّم في المدرسة سوى عام واحد خلافًا للبشير والمولدي اللذين درسا أربعة أعوام. ثم إنَّ الكلام الذي يتكلَّمونه في نشرة الأخبار لا يشبه كلام الناس..

ـــــ ماذا حدث؟

ـــــ حرقوا مركز شرطة ومعتمديَّة وبلديَّة..

ـــــ الله يهديهم..

ينهض البشير فجأة، ويقول:

ـــــ جلسنا أكثر من اللازم.. سنتمشَّى..

يقوم مصطفى على الفور. يسيران بمحاذاة السياج. البشير صامت. ومصطفى يردِّد بين الفينة والأخرى:

ـــــ الله يهديهم.. الله يهديهم..

وبدلاً من أن يتوجَّها إلى بيوت الدوَّار يعبران حقلاً واسعًا يمتدّ حتى المقبرة. ثم يتوجَّهان صوب الشرق. البشير يسير في المقدِّمة بخطى واسعة ومصطفى يتبعه. قطعا مسافة طويلة دون توقُّف. بدأ مصطفى يحسّ بالتعب حين ابتعدا عن الدوَّار. بيد أنَّه لم يتبرَّم خوفًا من أن يضايق البشير الذي كان مستغرقًا في التفكير. الشيء الوحيد الذي أشار إليه بسرعة هو أنَّ البرد أشدّ وطأة في تلك الأراضي البعيدة. وفي طريق العودة إلى الدوَّار، يتوقَّف البشير فجأة ويسأل مصطفى:

ـــــ ما معنى الديموقراطيَّة ؟

لا يدري لماذا طرح عليه السؤال، فقد كان على يقين من أنَّه لا يعرف الإجابة.

ـــــ ماذا؟

ـــــ الديموقراطيَّة..

ـــــ الديموراكيَّة!

ـــــ لا.. الديموقراطيَّة..

ـــــ من أين أتيت بهذا الكلمة العجيبة؟

ـــــ من الإذاعة.. سمعتها اليوم في نشرة الأخبار.. والآن ونحن نمشي، تذكَّرت أنِّي سمعتها من قبل..

ـــــ أخبار الإذاعة.. أنا لا أفهمها..

يضيف بلهجة ساخرة:

ـــــ إسأل صديقك المولدي.. إنَّه يفهم في أمور السياسة..

لا يردّ عليه البشير. يستأنفان السير. بعد بضع خطوات، يقول مصطفى بصوت واطئ كما لو أنَّه يخاطب نفسه:

ـــــ إذا تحدَّثوا عنها في الإذاعة.. فلا بدَّ أنَّها شيء مهمّ..

تتفاجأ منوبيّة حين ترى محبوبة حول البئر، فالمكان يكون في العادة خاليًا في مثل ذلك الوقت المبكر، إلاّ أنّها تبتهج في الآن ذاته. منذ أيّام عديدة وهي تنتظر هذا اللقاء. وها هي الصدفة ترتّب كلّ شيء. وما يزيد في ابتهاجها هو أنّ محبوبة كانت وحدها عند البئر. باستطاعتها إذن أن تتحدّث معها عن حكاية الحانوت وأن تطرح عليها ما تشاء من الأسئلة. وبإمكانها أيضًا أن تخاصمها إذا اقتضى الأمر ذلك.

منوبيّة على يقين من أنّ مصطفى هو الذي كان وراء انتشار هذه الحكاية، كما أنّها شبه واثقة من أنّ محبوبة قامت في ذلك بدور قد يكون أكبر ممّا خطر ببالها إلى حدّ الآن، إذ إنّ حكاية غريبة ومؤذية من هذا النوع لا يمكنها أن تتسرّب وتنتشر إلاّ بفعل عاهرة. ومحبوبة السوداء التي لا أحد يعرف بالضبط أصلها، وإن كان البعض يقول إنّها من بدو الصحراء، تعتبرها منوبيّة أكبر عاهرة في الدوّار.

منوبيّة تعرف جيّدًا أنّ محبوبة لن تقول لها الحقيقة. كلّ ما تريده الآن هو أن تحصل منها على شيء ما تطمئن به ضميرها، وخصوصًا تقنع به حامد كي يقدم على قتل مصطفى. لديها متّسع من الوقت كي تخوض معها مطوّلاً في الموضوع، فلن يأتي أحد إلى البئر قبل شروق الشمس. لن تدّخر جهدًا للحصول على ما تريد، وستلجأ إلى كلّ الوسائل المتاحة. ولا بدّ أن تتحكّم في أعصابها وأن تكون هادئة، ولا سيّما في البداية.

ـــ صباح الخير..

إنّها المرّة الأولى التي تبادر فيها منوبيّة بالسلام على امرأة أصغر منها سنًّا ومقامًا. وقد اضطرت إلى ذلك، لأنّ محبوبة لم تفطن لوصولها، فقد كانت تدير ظهرها لطريق البئر، كما أنّها كانت مستغرقة تمامًا في عملها. كانت واقفة بقدميها الحافيتين على حافّة فوهة البئر. ظهرها مقوّس. ويداها الاثنتان تمسكان بحبل غليظ لسحب الدلو المليء بالماء من البئر دون استخدام أيّة بكرة، ما يجعل عمليّة السحب أكثر مشقّة وبطئًا.

ـــ صباح الخير.. أمّي منوبيّة..

كلّ نساء الدوّار اللاتي في عمر محبوبة يسمّينها «أمّي منوبيّة». ومع ذلك، يغمرها قليل من الارتياح. تضع جرّتها الصغيرة في ركن الحوض، ثم تثبّت بكرتها على العارضة الخشبيّة التي تصل بين الجدارين الواطئين

اللذين يقومان حول فوهة البئر، وتدلي بدلوها. عندما تمتلئ الجرَّة، تجلس على حافَّة الحوض. ترفع دلوها وتسكب كلّ ما تبقَّى فيه من الماء على قدميها غير عابئة ببرودته. وفي اللحظة التي تستدير محبوبة لإفراغ الدلو في أحد براميلها الخشبيَّة، تسألها:

ـــــ سمعت بحكاية الحانوت؟

تهزّ محبوبة رأسها بالإيجاب دون أن تتوقَّف عن عملها. لا شيء في نظراتها أو حركاتها يدلّ على أنَّ السؤال فاجأها.

تتابع منوبيَّة:

ـــــ إنَّها حكاية غريبة..

ومرَّة أخرى، تحرِّك محبوبة رأسها موافقة. ثم تدير لها ظهرها وتدلي بدلوها الفارغ في البئر.

ـــــ حكاية لا يصدّقها أيّ عاقل في هذه الدنيا..

ـــــ آ..

ـــــ وكلّها كذب في كذب بالطبع..

ـــــ نعم.

ـــــ وسي البشير سيّد الرجال لا يستحقّ هذا.

ـــــ صحيح..

ـــــ ومبروكة.. هي أيضًا لا تستحقّ هذا.

ـــــ آ..

لا تستغرب منوبيَّة أن توافقها محبوبة على كلّ ما قالته، فهي تعرف أنَّها أمام امرأة داهية. ثم إنَّها خاطبتها بلهجة لطيفة مهذَّبة ولم تظهر لها إلى حدّ الآن ما يدلّ على أنَّها ساخطة عليها. لكنّ ما يلفت انتباهها هو أنَّ محبوبة ظلَّت هادئة بعد كلّ ما دار بينهما من كلام. لم تلحظ في تصرُّفها أيّ شيء يوحي بأنَّها مضطربة أو منزعجة أو خائفة، كما لو أنَّ المسألة لا تعنيها على الإطلاق. والمزعج في الأمر هو أنَّ شيئًا ما في داخلها يقول لها إنَّ محبوبة لا تتصنَّع ذلك وأنَّ هدوءها حقيقيّ.

ـــــ الرجال الذين يقولون هذا الكلام في الحانوت يكرهون سي البشير..

ـــــ نعم..

ترقب محبوبة للحظة، ثم ترفع صوتها:

ـــــ والذي روّج هذه الحكاية كلب ابن كلب..

يُخيَّل إليها أنَّ محبوبة أبطأت قليلاً في موافقتها هذه المرّة، كما لو أنَّ شيئًا ما ومض فجأة في ذهنها.

ـــــ وهذا الكلب ابن الكلب يعرف البشير جيّدًا..

ـــــ آ..

تدفع محبوبة بالبرميل الذي امتلأ إلى ركن الحوض. وتضع في مكانه برميلاً فارغًا. تتابع منوبيّة:

ـــــ ويعلم ما حدث في ليلة الدخلة..

تواصل محبوبة عملها دون أن تنبس بكلمة ودون أن تبدر منها أيّة حركة. تزداد منوبيّة تأكُّدًا من أنَّ هذا الصمت ليس طبيعيًا، وأنَّه يعني شيئًا ما. وبينما كانت تتساءل عمَّا إذا كانت محبوبة قد بدأت تفقد هدوءها، تتفاجأ بها تتوقَّف عن العمل وتستدير نحوها، وتسألها:

ـــــ ومن يكون هذا الشخص؟

لا تصدّق منوبيّة أذنيها. إنَّها تعرف أنَّها امرأة داهية. لكنَّها لم تكن تتصوَّر على الإطلاق أنَّها ستجرؤ على أن تطرح عليها هذا السؤال وبمثل ذلك الوضوح. تجيب وهي تحاول أن تسيطر على أعصابها:

ـــــ لا أدري..

وعلى الفور تضيف:

ـــــ كلّ ما أعرفه أنَّ هذا الشخص يعلم أنَّ سي البشير تأخَّر قليلاً ليلة الدخلة.. يعلم هذا السرّ..

ـــــ هذا ليس سرًّا..

ـــــ ليس سرًّا؟..

ـــــ كلّ الرجال الذين يتزوَّجون صغارًا يتأخَّرون..

ـــــ لكنْ كيف عرفوا أنَّ سي البشير تأخَّر أكثر من غيره؟

ـــــ لا أدري..

ـــــ لو لم يقل هذا الكلب ابن الكلب إنَّ سي البشير تأخَّر أكثر من غيره لما ظهرت هذه الحكاية!

تنهض وتتطلَّع إلى طريق البئر. لا أحد فيه. لكن عندما تلتفت إلى جهة الشرق تدرك أنَّ الوقت الذي قضته في البئر أطول ممَّا كانت تظنّ، وأنَّ الشمس على وشك الطلوع. لم يعد لديها كثير من الوقت. وهي لم

تستطع إلى حدّ الآن أن تعثر في تصرُّفات محبوبة أو أقوالها ما يدلّ على أنَّ زوجها هو الذي كان وراء حكاية الحانوت. تفطن أيضًا إلى أنَّها كانت حذرة ومتردِّدة أكثر من اللازم، وأنَّ محبوبة التي كانت تتوقَّع على ما يبدو أن تفاتحها في موضوع حكاية الحانوت قد استفادت كثيرًا من ذلك، وتصرَّفت بدراية وحكمة. تتساءل عمَّا إذا كانت محبوبة قد نصبت لها فخًّا فوقعت فيه كالضبع. هي التي كانت تعتقد أنَّها أذكى بكثير من هذه العاهرة السوداء. يتصاعد الغضب داخلها. تذرع الحوض جيئة وذهابًا لوقت قصير ثم تعود إلى مكانها، وتقول:

ـــــ هذا الكلب ابن الكلب هو المسؤول عن كلّ ما جرى..

تشرع في الدعاء عليه وقذفه بأقذع الشتائم بصوت عال. تلعن أصله. أمّه. ذرّيّته. زوجته.. كانت تريد أن تدفع محبوبة إلى الكلام أو تغيير تصرُّفها. كانت تنتظر منها كلمة أو حركة أو خطأ يفضح زوجها أو يمكّنها من أن تستنتج شيئًا ما.

بيد أنَّ محبوبة لا تنبس بكلمة. وكلّ ما فعلته هو أنَّها ألقت عليها نظرة خاطفة ثم واصلت عملها. لم تعد منوبيَّة تحتمل الموقف. تنهض فجأة وتندفع كالمجنونة نحو محبوبة التي كانت قد استدارت لإفراغ دلوها. وتقول لها وهي تتفرَّس في وجهها:

ـــــ أنتِ كذّابة..

تتطلَّع إليها محبوبة مندهشة، ثم تشرع في سكب الماء في البرميل. إلاَّ أنَّ منوبيَّة تنتزع الدلو بقوَّة من يديها وتلقي به على الأرض.

ـــــ كذّابة كبيرة..

تتراجع محبوبة إلى ركن الحوض وهي لا تحيد عنها ببصرها. كان واضحًا أنَّ التغيُّر المباغت في سلوكها قد أربكها.

تدنو منها منوبيَّة بعد أن تركل الدلو بعنف.

ـــــ أنت تعلمين..

ـــــ أعلم ماذا.. أمي منوبيَّة؟

ـــــ لست أمَك.. يا عاهرة..

ـــــ لم أفهم.. عن أيّ شيء تتحدَّثين؟

ـــــ قلت لك تعلمين كلّ شيء..

ـــــ والله العظيم لا..

تصرخ وهي تميل صوبها:

ـــــ اسكتي.. لا تحلفي..

تزداد محبوبة تراجعًا إلى الخلف وتصمت.

ـــــ الناس يظنُّون أنَّك امرأة طيِّبة.. لكنْ أنا أعرف أنَّك عقرب..

تحدّق في عينيها اللتين جمّدهما الذهول، وتضيف:

ـــــ أنا متأكّدة من أنَّك تعلمين..

ـــــ لكن أعلم ماذا؟

ـــــ أغلقي فمك النتن.. يا عاهرة..

تتملَّك منوبيَّة رغبة جامحة في أن ترفع يدها عاليًا وتهوي بها بقوَّة على رأسها. إلاَّ أنَّها لا تفعل. وعلى أيّ حال لن يفيدها هذا. أصبحت موقنة من أنَّها لن تحصل منها على أيّ شيء اليوم. لقد فعلت كلّ ما كان باستطاعتها. لكنَّ الأمور سارت في طريق لا يؤدّي إلى أيّ شيء ممَّا كانت تبحث عنه. تجلس على جدار الحوض، وترفع رأسها، ثم تشرع في تأمُّل السماء التي تغيّر لونها بتزايد الضوء.

هذه هي المرّة الأولى التي يراها فيها منذ أن انتشرت حكاية الحانوت.

لم ينتبه إلى وجودها إلاّ عندما أصبح على بعد خطوات قليلة منها. ومن حسن الحظ أنّها لم تره، فقد كانت تقف مديرة ظهرها للطريق الذي كان يسلكه. حالما وقعت عيناه عليها، انحنى واختبأ خلف سياج الصبّار الفاصل بين الطريق والحقل الذي كانت داخله. بعد وقت قصير، يتطلّع إلى الخلف ليتأكّد من أن لا أحد شاهده وهو يختبئ. ثم يرفع رأسه بحذر شديد، وينظر إليها من خلال فجوة صغيرة في سياج الصبّار. مبروكة لا تزال في مكانها. كانت تمسك بعصا طويلة. وحولها بضع شياه ترعى الكلأ.

باستطاعته أن يواصل السير دون أن تنتبه إلى وجوده شريطة ألاّ يتباطأ أو يحدث ضجيجًا. ويكفي أن يقطع مسافة لا تتجاوز العشر خطوات كي يبلغ الموضع الذي يكون فيه السياج مرتفعًا. عندئذ، لن يكون بمقدورها أن تراه حتى لو نظرت إلى الخلف. بيد أنّه لا يبرح مكانه. ثمّة شيء ما يشده إليه. لقد اخترقت جسمه رعشة خفيفة عندما شاهدها. منذ أعوام لم يحدث له هذا. عليه أن يتمهّل قليلاً وأن يستفيد من هذه المفاجأة السارّة. الطريق خالٍ. ولا أحد سواهما في المكان. والبشير في السوق ولن يعود إلى الدوّار قبل الظهيرة.

تستدير مبروكة وتتقدّم ببطء من شاة ابتعدت عن القطيع. تهشّ عليها بعصاها. ثم تقف وتتطلّع إلى السياج الذي يختبئ خلفه. يعتريه الارتباك حين يرى وجهها. ها هي المرأة التي اشتهاها مرّتين قبل أعوام طويلة. ها هي المرأة التي يقولون في الحانوت إنّه هو الذي باشرها ليلة الدخلة. من المؤكّد أنّها سمعت كالجميع في الدوّار بحكاية الحانوت. ترى كيف تنظر إليه الآن؟ لا شكّ أنّ هذه الحكاية الغريبة قد صدمتها وآلمتها هي أيضًا. لا بدّ أنّها استعادت عدّة مرّات منذ أن سمعتها ما حدث في تلك الليلة البعيدة. ولعلّها اكتشفت أنّه اشتهاها. وربّما استنتجت أنّه لمح أو شاهد منها شيئًا ما عند سقوطه على الحصير.

لو تحدّث إليها لربّما تمكّن من حدس ما يجول في ذهنها. قبل انتشار هذه الحكاية، استطاع بعد مرور أعوام على زواجها أن يتخلّص من هذا المزيج من الاضطراب والحرج الذي كان ينتابه كلّما رآها. صحيح أنّه لم يتمكّن قطّ من أن ينسى تمامًا ما حدث ليلة الدخلة خصوصًا شهوته لها، لكنّه نجح في أن يُقيم معها من جديد علاقة لا تختلف كثيرًا عن تلك التي

تربطه بأغلب النساء المتزوّجات في الدوّار. صار ينظر إليها دون أن يشعر بالارتباك، ويكلّمها حين تكون وحيدة. بل ولا يتردّد أحيانًا في أن يضاحكها ويمازحها. الآن، لا يجرؤ على أن يكلّمها بل ولا يرغب في أن تراه. فهو يخشى إن كلّمها أن يوقعها في حالة من الاضطراب الشديد. ثم إنّ الالتقاء بها وحيدة في مكان خال وبعيد قليلاً عن بيوت الدوّار سيزعجها بالتأكيد. إلاّ أنّ ما يخشاه حقًّا هو أن تخبر البشير بأنّه انتهز فرصة غيابه والتقاها على انفراد.

لم يمض وقت طويل على آخر مرّة شاهدها فيها. كان ذلك قبل انتشار حكاية الحانوت. أغلب ما فيها يتبدّى له الآن مختلفًا.

بشرتها صارت أكثر بياضًا وصفاء، ووجهها يشبه وجه امرأة في مقتبل العمر؛ أمّا جسدها، فقد ظلّ مستقيمًا رغم أنّها ازدادت سمنة. وحتى صدرها الذي كان يعتبره صغيرًا بالمقارنة مع صدر محبوبة بدا له هذه المرّة أكثر امتلاء. ليس هناك امرأة واحدة من بين كلّ نساء الدوّار لها كلّ هذا الجمال. اللاتي كنّ جميلات في صغرهنّ فقدن الكثير من جمالهنّ مع التقدّم في السنّ. واللاتي كنّ دميمات صرن أكثر دمامة. والغريب في الأمر أنّ مبروكة كانت قبل الزواج بنتًا عاديّة. بالطبع لم تكن بشعة، بل يمكن القول إنّها كانت أفضل من أغلب بنات الدوّار. لكنّ لا أحد كان يتصوّر أنّها ستصبح في يوم من الأيّام، وخصوصًا في هذه العمر، جميلة إلى هذا الحدّ.

وللمرّة الأولى، يتسلّل الحسد إلى قلبه. لم يكن يتوقّع أبدًا أنّ هذا الإحساس الكريه سينتابه ذات يوم. لم يكن يتصوّر أبدًا بعد كلّ هذه الأعوام الطويلة من الصداقة والعشرة أن يحسد البشير على زوجته. عجيب أمرها هذه النفس! كم هي فاسدة! كم هي حقيرة ودنيئة! يشعر بالخزي ويعتصره ألم حادّ فيستدير إلى الخلف. الطريق لا يزال خاليًا. ولا أحد في الحقول المجاورة.

وحين ينظر من جديد إلى وجهها، يتذكّر ما يعتبره سرّه الأكبر الذي لن يبوح به لأحد حتى في الأعوام الأخيرة من عمره، وهو أنّه فكّر في فترة ما من شبابه أن يخطب مبروكة، بل وأنّه كاد يفعل ذلك بعد أن درس الموضوع طولاً وعرضًا، وصار متأكّدًا من أنّ إمكانيّة موافقتها ليست أمرًا مستحيلاً. لو أفشى هذا السرّ الآن لما صدّقه أحد، ولسخر منه الجميع رجالاً ونساء، واعتبروا كلامه هذرًا وتخريفًا.

في تلك الأعوام، كانت الأمور مختلفة عمّا هي عليه الآن، فالبشير

الذي قبلته مبروكة حالما خطبها لم يكن أجمل منه كما أنَّه لم يكن غنيًا، وإن كان لا بدَّ من الاعتراف بأنَّه كان أفضل حالاً منه. ثم إنَّ العزّاب لم يكونوا متهافتين على مبروكة.. فأبوها حامد كان أشدَّ فقرًا ممَّا هو عليه الآن، وأغلب الناس كانوا يسمُّونه «قصّاص الكروز» استهزاء به، بالرَّغم من أنَّهم كانوا يلتجئون إليه عندما يريدون ختان أطفالهم. أمَّا منوبيَّة، فقد كان يتجنَّبها الناس قدر الإمكان خوفًا من لسانها السليط ومن حبِّها للخصام.

تخطو بضع خطوات وهي تخبط العشب بعصاها خبطات خفيفة، ثم تتوقَّف. كانت ترتدي مثل أغلب النساء اللاتي في سنِّها فستانًا بدلاً من الملحفة التقليديَّة. وكانت تغطِّي رأسها بمنديل أحمر صغير لا يحجب إلاَّ الجزء الأعلى من ضفيرتيها الطويلتين. وكلَّما هبَّت الريح تحرَّك فستانها والتصق بجسمها مبرزًا بوضوح صدرها وأردافها. يركِّز بصره على ما كان عاريًا من ساقيها، فتقفز إلى ذهنه صورتها وهي مستلقية على ظهرها على الحصير ليلة الدخلة ثم الوضعيَّة التي وجد نفسه فيها بعد أن زلّت قدمه. لا يدري إلى حدِّ الآن كيف وقع بين ساقيها المفتوحتين مقابل أنوثتها تمامًا. لقد شاءت الأقدار أن يكون قريبًا جدًّا منها. كان يكفي أن يحرِّك رأسه إلى الأمام ليلامسها بأنفه.. إنَّها المرَّة الأولى في حياته التي يقترب فيها إلى هذا الحدّ من أنوثة وحميميَّة امرأة.

ومن جديد، يحمد الله على أنَّه لم يَرَ منها شيئًا محدَّدًا، وأنَّ كلَّ هذا حدث بسرعة هائلة، وخصوصًا أنَّه استطاع أن يتمالك نفسه على الفور وأن يغمض عينيه في اللحظة المناسبة ويتراجع برأسه قبل أن يغادر الغرفة ويعود إلى مخبئه في الممشى.

إلاَّ أنَّ ثمَّة شيئًا ما يزعجه هذه المرَّة. إحساس غامض وغريب لم يعرفه أبدًا من قبل يتسلَّل كدخان رقيق إلى أبعد نقطة في أعماقه. شعور كأنَّه ندم أو لوم على تصرُّفه اللائق هذا. كأنَّه كان عليه أن ينتهز تلك الفرصة النادرة، فيتمهَّل قليلاً لينظر إلى ما يحيط برأسه المحاصر بين الساقين ويتشمَّم تلك الرائحة اللذيذة المخدّرة التي غزته.

إنَّها دون شكّ، النفس الأمَّارة بالسوء التي سوَّلت له هذا. لقد استغلَّ الشيطان الرجيم لحظات ضعفه هذه ليغرقه في أحاسيس مقيتة لا تليق به. يتمتم عدَّة مرَّات عائذًا بالله منه. ثم يقرِّر أن يغادر المكان على الفور. ولكنْ حالما رفع رأسه استعدادًا للنهوض، استدارت مبروكة صوبه. يتفاقم ارتباكه ويزداد انحناء ويخفض رأسه قدر الإمكان. يظلّ جامدًا لا يجرؤ

حتى على النظر حوله.

يكتشف وهو يتطلّع إليها بحذر أنّها اقتربت كثيرًا من السياج، وأنّها تقف على بعد ثلاث أو أربع خطوات من المكان الذي يختبئ فيه. يكفي أن يقوم بأيّة حركة أو يحدث أيّ ضجيج لكي تفطن له. يدرك أنّه وقع في ورطة؛ فهو من جهة لا يستطيع أن يواصل طريقه، ومن جهة أخرى يخشى أن يراه أحد وهو في مثل تلك الحالة. يلوم نفسه بشدّة على أنّه استسلم لرغبته في البقاء حيث هو لمّا وقعت عيناه عليها، وأنّه انخرط في هذه اللعبة الغريبة. عليه الآن أن ينتظر آملاً أن يعثر على مخرج من هذه الورطة في أقرب وقت. يضمّ ركبتيه ويطوّقهما بذراعيه. ثم ينحني قليلاً بحثًا عن وضعيّة مريحة.

يفكّر أنّ كلّ هذه الأحاسيس البغيضة والموجعة التي تنتابه بين الحين والآخر، منذ انتشار حكاية الحانوت، ما كانت لتنتابه لو لم يكن وزيرًا للبشير في ليلة دخلته. نعم. لو لم يختره صديقه لأداء هذه المهمّة الصعبة والمحرجة والدقيقة، لما ذاق كلّ هذا العذاب، ولما وجد نفسه مثلما هو الآن مرغمًا على أن يختبئ خلف سياج من الصبّار كما لو أنّه سارق دجاج أو أرانب.

يذكر أنّه لم تكن لديه في البداية أيّة رغبة في القيام بهذه المهمّة، فقد كان يخشى ألاّ يكون وزيرًا جيّدًا. كان يعرف أنّ الصعوبات التي واجهته ليلة دخلته على محبوبة لا تختلف كثيرًا عن تلك التي يواجهها كلّ الرجال. لكنّه اكتشف منذ تلك الليلة أنّه ليس من هؤلاء الذكور الأقوياء الذين يعالجون نساءهم من الضربة الأولى، وأنّه ليس فحلاً مثلما كان يتصوّر.

وما فاقم خشيته هو أنّه لم يكن قد مضى وقت طويل على زواجه عندما أعلمه البشير بأنّه اختاره وزيرًا له. لم يعاشر النساء ما يكفي من الزمن كي يصبح خبيرًا بأمورهنّ الحميميّة، وإن صار بمرور الأعوام متأكّدًا أنّ من الصعب جدًا أن يصبح الرجل خبيرًا في هذه الأمور، فهي غامضة ومعقّدة مثل أنوثة المرأة التي صوّرها الله على هذه الصورة لحكمة لا يدريها إلاّ هو سبحانه وتعالى.

وبالطبع، لم يكن باستطاعته رفض المهمّة. فالبشير صديق عزيز. وقد أراد أن يشرّفه ويكرّمه عندما أوكل إليه هذا الأمر النبيل. ليلة الدخلة ليلة لا مثيل لها في حياة كلّ رجل. ليلة خير من ألف ليلة. وما يحدث فيها شيء استثنائيّ ونادر، إذ إنّ المرء لا يعالج زوجته سوى مرّة واحدة. ولهذا

لا يختار أيًا كان ليكون وزيره ويعيش معه عن كثب كلّ ما سيقع في هذه الليلة، وإنّما واحدًا من أعزّ أصدقائه يرتاح إليه كثيرًا ويثق به. ولا بدّ من الاعتراف بأنّه قَبِل المهمّة لسبب آخر، وهو أنّ المرأة التي سيشرف على عمليّة علاجها ليست أيّة امرأة وإنّما هي مبروكة، التي كان من الممكن أن تكون زوجته هو لو تجرّأ وخطبها.

لن ينسى أبدًا اللقاء الذي جمعهما على انفراد قبل الدخلة بوقت قصير للتنسيق والتشاور. كانا متعبين، فقد شربا طوال أيّام العرس الثلاثة مثل غيرهما من الرجال، وسهرا ولعبا الورق وغنّيا ورقصا كثيرًا. علامات الاضطراب والتوتّر بدأت تظهر على البشير. أمّا هو، فقد انتابه الخوف فجأة. تحدّثا لبضع دقائق عن الدخلة ثم سكتا. عمّ المكان صمت ثقيل. وللحظات طويلة لم يجرؤ أيّ واحد منهما على أن ينظر إلى الآخر. كانا كئيبين كما لو أنّهما في جنازة وليس في عرس. ولحسن الحظّ، فإنّ هذه الحالة الغريبة لم تستمرّ، فقد استطاع أن يسيطر على خوفه وعاد إلى الكلام ليقدّم النصائح الأخيرة للبشير، قبل أن يتوجّه إلى الغرفة التي تنتظره فيها عروسه.

حين يرفع رأسه ليراقب مبروكة، يتفاجأ بأنّها لم تعد في مكانها، وأنّها ابتعدت كثيرًا عن السياج. لقد ساقت شياهها إلى طرف الحقل. وجلست على الأرض مديرة له ظهرها. ليس بإمكانها أن تراه الآن. يندفع واقفًا. يلتفت حوله. ثم يواصل طريقه..

وبعد خطوات قليلة، يخطر بباله شيء لا يدري كيف غاب عن ذهنه طول الوقت الذي أمضاه مختبئًا خلف السياج، وهو أنّ مبروكة قد تكون شاهدته هي أيضًا وتظاهرت بعكس ذلك تمامًا مثلما فعل هو. وفي هذه الحالة، فإنّ اقترابها من السياج إلى ذلك الحدّ لم يكن من قبيل الصدفة. لقد فعلت هذا عمدًا لكي تتيح له فرصة التحدُّث إليها! يتوقّف ويتطلّع إليها للحظة، ثم يستأنف السير.

ـــــ أين كنت؟

لم يكن مصطفى يتوقّع أن تطرح عليه محبوبة هذا السؤال عندما عاد إلى البيت بعد قيامه بجولته الصباحيّة الاعتياديّة. بيد أنَّ ما أثار استغرابه هو هذا المزيج من الانفعال واللوم في لهجتها.

ـــــ كنت أتمشّى.. كالعادة..

ـــــ أين؟

ـــــ في الحقول..

ـــــ كذّاب..

ـــــ والله العظيم كنت أتمشّى..

ـــــ أين بالضبط؟

ـــــ في حقول بعيدة عن الدوّار.

ـــــ هل تمشّيت فقط؟

في تلك اللحظة، يفهم لماذا طرحت عليه هذه الأسئلة. ومع ذلك، يقول محاولاً تضليلها مرّة أخرى:

ـــــ نعم.. وماذا يمكنني أن أفعل غير هذا في الحقول في الصباح؟ هل تظنّين أنّني كنت أصطاد الحجل والزرزور أو أطارد الأرانب البرّيّة؟!

ـــــ كذّاب..

كانت منتصبة أمام الباب، كما لو أنّها تريد أن تمنعه من دخول البيت. تسأله وهي تتفرّس في وجهه:

ـــــ ألم تجلس وحدك على الأرض.. بجانب سياج صبّار.. في مكان لا أحد يجلس فيه؟

الآن، صار متأكّدًا من أنّها تعرف. لم يعد بإمكانه أن يتمادى في الكذب.

ـــــ ماذا كنت تفعل في هذا المكان؟

ـــــ شعرت بوجع في رجلي، فجلست..

ـــــ الذي نقل لي الخبر قال إنّك كنت مختبئًا.. كأنّك خائف من شيء ما!

ـــــ لم أكن مختبئًا.. ولم أكن خائفًا..

ـــــ ما زلت تكذب عليّ.. قل الحقيقة.. لماذا كنت مختبئًا؟

لا يدري ما يقول. وعلى أيّ حال، فالصمت في مثل هذه الحالات أفضل بكثير من الكلام.

تسأله بهدوء:

ـــــ هل رأيت شخصًا سلّفك فلوسًا؟

لم يكن ينتظر مخرجًا أفضل من هذا. يهزّ رأسه بالإيجاب.

ـــــ واختفيت خلف الصبّار حتى لا يراك ويطلب فلوسه؟

ـــــ آ..

أصبح واثقًا من أنّ محبوبة لا تعرف كلّ شيء، فالشخص الذي نقل لها الخبر لم يشاهد بالتأكيد مبروكة ولا شياهها، ولم يفهم لماذا كان مختبئًا خلف السياج.

ـــــ ومن هو هذا الشخص الذي سلّفك فلوسًا؟

ـــــ رجل من دوّار آخر.. لا تعرفينه؟

ـــــ والفلوس التي تسلّفتها كثيرة..

ـــــ لا.. قليلة.

ـــــ لا بدّ أن تردّ له فلوسه..

تدخل الدار، فيتبعها. تقول وهي تشرع في تقشير الخضر لإعداد شكشوكة الغداء.

ـــــ لا أحبّ أن يقول الناس إنّهم رأوك مختبئًا كأنّك سارق.. أنت رجل.. ولا بدّ أن تحافظ على قدرك..

لا يشعر بأيّ انزعاج. بالعكس يرتاح لكلامها، فهو يدلّ على أنّها حريصة على سمعته وقدره ومكانته بين الرجال، وأنّها بالتالي تحبّه. وهذا ما لم يكن ينتظره منها آنذاك. إنّه محظوظ حقًّا هذا الصباح. لم يكن يتصوّر على الإطلاق لمّا بدأت تمطره بأسئلتها أنّ الأمور ستسير على هذا النحو. أحسّ في لحظة ما أنّها على علم بكلّ ما جرى، وأنّها تعرف أنّه كان يتلصّص على مبروكة في مكان خال. لقد نجا بأعجوبة من ورطة كبيرة. والغريب في الأمر أنّها هي التي مكّنته من النجاة، فلو لم تحدّثه عن الرجل الذي أقرضه مالاً وواصلت تضييق الخناق عليه، لكان باستطاعتها أن تكشف أنّه اختبأ خلف السياج لسبب آخر. بالطبع، لن يقول لها أبدًا إنّه كان يراقب مبروكة، لكنّ الأمور ستزداد تعقيدًا.

ـــــ الرجل الذي في عمرك لا بدّ أن يتصرّف بعقل وحكمة..

ـــــ آ..

يراقبها بإعجاب وهي تقشّر الخضر. بغتة تلقي بالسكّين على الأرض أمامها، وتستدير إليه:

ـــــ لماذا لا تشتغل تاجرًا؟

ـــــ تاجر؟

ـــــ نعم.. تاجر غنم..

يردّد بلهجة لا تخلو من الدهشة:

ـــــ تاجر غنم؟.. تاجر غنم؟..

ـــــ آ.. مثل البشير..

ـــــ الآن.. في هذا العمر؟

ـــــ ما زلت صغيرًا..

ـــــ أنت تمزحين..

ـــــ لا أمزح.. أتكلّم بجدّ..

تهزّ رأسها عدّة مرّات للتأكيد على ما قالته.

ـــــ ولكنّي لم أعمل أبدًا في التجارة..

ـــــ ستتعلّم.. مثل البشير..

ـــــ البشير يتاجر من سنين.. قبل الغنم كان له الحانوت.. وقبل الحانوت كان يتاجر بالأرانب والدجاج..

يسكت برهة، ثم يتابع:

ـــــ وحتى لو كنت أفهم في التجارة.. من أين آتي بالفلوس؟.. التاجر لا بدّ أن تكون له فلوس..

ـــــ الحكومة ستعطيك الفلوس.. الآن كلّ المحتاجين مثلنا ستساعدهم الحكومة.. الله يرحم أولاد الحلال الذين عملوا الثورة..

ـــــ من قال لك إنّ الحكومة ستساعد المحتاجين؟

ـــــ سمعت هذا في الإذاعة..

ـــــ وإذا لم تعطنا الحكومة الفلوس.. ماذا نفعل؟

ـــــ نبيع صيغتي من الذهب..

يحدّق في وجهها مندهشًا. ليس هناك شيء من متاع الدنيا تحبّه مثلما تحبّ حليّها. لم يجرؤ أبدًا حتى في أحلك فترات حياتهما أن يطلب منها أن تبيع ولو قطعة واحدة من ذهبها وفضّتها. كان متأكّدًا من أنّها

سترفض طلبه. وها هي الآن تقترح عليه ذلك. لا بدَّ أنَّ رغبتها في أن يشتغل في التجارة أقوى بكثير ممَّا كان يظنّ. ولكنّ كيف تملّكتها هذه الرغبة العجيبة؟ ولماذا الآن؟

ـــــ قطعة ذهب واحدة تكفي.. ولمَّا تربح تشتري لي قطعة جديدة..

ـــــ التجارة تتطلَّب الحساب.. وأنا لا أعرف الحساب..

ـــــ أنا أتكفَّل بالحساب..

ـــــ أنت تعرفين الحساب؟

ـــــ آ..

لا يقول شيئًا بالرَّغم من أنَّه على يقين من أنَّ معرفتها بالحساب محدودة. تلتقط السكّين وتعود إلى تقشير الخضر. وعندما تنتهي من ذلك، تبدأ في تقطيعها إلى قطع صغيرة تلقي بها في لامبالاة في طنجرة بجانبها.

ـــــ ولماذا تريدين أن أصير تاجرًا؟

ـــــ لا بدَّ أن تعمل.. من مدَّة ما عملت.. لو كان عندك فلوس لما تسلَّفت.. ولما اختبأت كالسارق.. إلى متى ستبقى فقيرًا؟.. الدنيا تغيَّرت.. والناس الآن لا يحترمون إلاَّ الذي عنده فلوس..

ـــــ ماذا تقولين؟.. كلّ الناس في الدوَّار يحترمونني..

تحدّجه بنظرة باردة، ثم تبتسم ابتسامة توحي بأنَّها تسخر من كلامه.

ـــــ هل هناك شخص في الدوَّار أغنى وأعلى مقامًا من البشير؟.. سي البشير يحترمني.. وأنت تعرفين ذلك..

ـــــ يحترمك لأنَّك صاحبه.. وكنت وزيره.. ولأنَّه يحتاج إليك لرعي شياهه..

ـــــ البشير لا يحتاج إلى أحد.. البشير يحبّني ويحترمني.. ويحبّك أنت أيضًا..

تشعل موقد الكاز وتضع عليه الطنجرة. ثم تشرع في تمشيط شعرها. يقول بافتخار:

ـــــ ما عندنا فلوس.. صحيح.. لكن سمعتنا طيّبة والحمد الله.. الناس في الدوَّار يقدّروننا..

ـــــ إلاَّ شخص واحد..

ـــــ من هو؟

ـــــ منوبيّة..

ـــــ منوبيّة خرفت..

ـــــ آ.. لكن لسانها ما زال طويلاً..

ـــــ لا أحد يسمع كلامها.. كلّ الناس يعرفون أنّها كبرت وصارت تهذي..

تصبّ بضع قطرات من زيت الزيتون في راحة يدها. وتدهن شعرها طويلاً، كما تفعل كلّما انتهت من تمشيطه. يركّز بصره على نهدها المكوّم تحت المريول ثم على شعرها المضمّخ بالزيت. في العادة تضفره حالما تنتهي من تمشيطه ودهنه بالزيت، لاعتقادها بأنّ ضفر الشعر باستمرار يزيد في طوله. وهي تتمنّى بالطبع مثل كلّ النساء أن يكون لها أطول شعر في الدوّار. هذه المرّة تركته محلولاً منسدلاً على كتفيها.

ـــــ قبل يومين.. قابلتها..

ـــــ أين؟

ـــــ في البئر.. كانت كالمهبولة..

ـــــ لماذا؟

ـــــ بسبب حكاية الحانوت..

ـــــ حكاية الحانوت؟.. وما دخلها في هذه الحكاية؟

ـــــ تعتقد أنّ الشخص الذي وراء الحكاية يعرف جيّدًا البشير.. ويعرف أنّه تأخّر ليلة الدخلة.. قلت لها إنّ تأخّر البشير ليس سرًّا.. وإنّ كلّ الناس يعرفون أنّ الذين يتزوّجون صغارًا تعترضهم صعوبات، خصوصًا أنّهم يدخلون على نسائهم وهم سكارى ومتعبون وخائفون من الفشل..

ـــــ وماذا قالت لك؟

ـــــ لم تسمعني.. كانت كالجمل الهائج.. قلبي يقول لي إنّها تنوي لنا الشرّ..

ـــــ صرت تخرفين مثلها؟..

ـــــ أظنّ أنّها تشكّ فيك..

ـــــ تشكّ فيّ أنا؟

ـــــ آ.. أظنّ أنّها تعتقد أنّك أنت الذي وراء الحكاية..

ـــــ بنت الكلب.. لا بدّ أنّ عقلها فسد..

يسكتان. بعد وقت قصير، تنهض وتدخل الغرفة المجاورة. الوقت لا يزال ضحى. ومع ذلك، يشعر بالجوع كما لو أنّه لم يتناول أيّ شيء منذ أن استيقظ. وفي انتظار أن يصبح الغداء جاهزًا، يخرج للتجوُّل حول البيت. بعد بضع خطوات، يتذكَّر لقاءه الأخير بالبشير. حين يستعيد حديثه عن حكاية الحانوت، ينتبه إلى أنَّ هناك شبهًا كبيرًا بين ما قالته منوبيَّة لمحبوبة وما قاله له البشير عن «هؤلاء الذين يتحدَّثون عنه في الحانوت ويعرفون ما حدث له ليلة الدخلة، كما لو أنَّهم كانوا معه في الغرفة أو نزل عليهم الوحي..»!

وللمرَّة الأولى يتساءل عمَّا إذا كان البشير هو أيضًا يشكّ فيه، وعمَّا إذا كان قد قال له هذا الكلام كي يوحي له بذلك. وربَّما أراد أن يختبره ليرى ردَّة فعله. بل ولعلَّه حاول أن يدفعه إلى الاعتراف. يتساءل أيضًا عمَّا إذا كان البشير ومنوبيَّة قد تحدَّثا عن حكاية الحانوت وتناقشا فيها طويلاً، وعمَّا إذا كان هذا التشابه الكبير في أقوالهما ناتجًا عن اتِّفاق بينهما وليس مجرَّد مصادفة.

البشير رجل عاقل ورصين. وهو لا يولي كلام النساء أيّ اهتمام، خصوصًا إذا تعلَّق الأمر بمسألة حسَّاسة وخطيرة مثل حكاية الحانوت. لكنَّ هذا التشابه يثير الاستغراب والحيرة ويولِّد في نفسه تساؤلات عديدة. كلّ ما في داخله يقول له إنَّ منوبيَّة هي أوَّل من شكَّ فيه، لأنَّ أمرًا كهذا لا يمكن أن يصدر إلاَّ عن امرأة مثلها. ولكنْ كيف أقنعت البشير بذلك؟ كيف استطاعت أن تُدخل إلى ذهنه هذه الفكرة العجيبة؟ إذا ثبت أنَّ البشير يشكّ فيه فعلاً، فمن المؤكَّد أنَّ منوبيَّة لجأت إلى وسائل جهنَّميَّة، بل وربَّما سحرته!

وبعد أن يعود إلى البيت، تقول له محبوبة وهما يتحلَّقان حول المائدة:

ـــــ رأيت ماذا يطلع من هذه العجوز؟

لم يعد يشعر بأيَّة رغبة في الحديث معها في هذا الموضوع. كلّ ما يريده هو أن يتغدَّى ليستطيع أن يفكِّر بهدوء فيما بعد في كلّ هذه التساؤلات التي غزت ذهنه، منذ أن اكتشف هذا التشابه الغريب في أقوال البشير ومنوبيَّة. يقول متظاهرًا بعدم الاكتراث:

ـــــ مسكينة.. خرفت..

لم يشأ البشير أن يغيّر وجهته عندما رأى محبوبة من بعيد في الطريق الذي كان يسلكه. كانت تسير صوبه بخطًى بطيئة حاملة على ظهرها شيئًا لم يتبيَّنه. لم يحدث طوال حياته أن تشاجر معها أو كرهها أو حقد عليها أو أساء معاملتها. وحتى بعد انتشار حكاية الحانوت، لم يشعر بأيّ استياء منها، رغم أنَّه لا يستبعد أن تكون قد قامت ولو بشكل غير مباشر بدورٍ ما في انتشار هذه الحكاية. كان بالعكس من ذلك، يودّها ويحترمها، بل ويحسّ بشيء من العطف والشفقة عليها، وذلك بسبب الظلم التي تتعرَّض له في الدوَّار.

أغلب النساء والأطفال والكثير من الرجال يسمُّونها «السوداء»، وأحيانًا «العبدة»، بالرَّغم من أنَّها ليست سوداء ولا عبدة.

كلّ ما في الأمر هو أنَّ بشرتها ليست بيضاء كبشرة بقيَّة النساء، وأنَّ وجهها يشبه في بعض قسماته وجوه السود. ويحتقرون أصلها، رغم أن لا أحد يعرف بالضبط من أين تحدَّرت عائلتها. وهناك من يزعم أنَّها تنتمي إلى قبيلة مغمورة نزحت منذ أعوام طويلة من صحراء دوز، وأنَّ كلّ أفرادها كانوا في الأصل سودًا كالفحم، وأنَّ لون جلدهم تغيَّر بعد أن عاشروا البيض وتزوَّجوا منهم.

أن يتحدَّث الناس عن أصلها الغامض وأن يذهبوا في ذلك مذاهب شتى، فهذا أمر طبيعيّ. لا يستغرب أيضًا أن يستهزئوا بذلك، وإن كان يعتقد أنَّهم يبالغون ويتجاوزون الحدود في أغلب الأحيان. لكنْ أن يسخروا من لون بشرتها ويعيّروها بذلك، فهذا ما لا يفهمه. الله خلقنا كما شاء. خلق الأبيض والأسود. الطويل والقصير. السمين والضعيف.. فما ذنبها إن صوَّرها على هذا الشكل؟ ما ذنبها المسكينة إن خلقها بهذا اللون؟

وعلى أيّ حال، فإنَّه لا يجدها بشعة كما يردّد أغلب الناس، خصوصًا النساء. بل يمكن القول إنَّها تبدو له أقرب إلى الجمال منها إلى القبح. بالطبع، لا يجوز أن نقارنها بأيّة امرأة بيضاء، لأنَّه لا شيء في المرأة أجمل من بياض جلدها خصوصًا إن كانت سمينة. وكلَّما كانت بيضاء وسمينة مثل مبروكة كانت أجمل. لكنَّ محبوبة لها جمال من نوع يختلف عن جمال المرأة البيضاء. جمال غير مألوف. يحسّ به ويراه. لكن لا يدري كيف يصفه!

لم يذكر مصطفى اسم محبوبة مرّة واحدة حين أخذ يبحث عن بنت للزواج منها. كان آنذاك معجبًا بذاته ويعتبر نفسه وسيمًا، رغم أنّه هو أيضًا ليس أبيض تمامًا. كان يعتقد أنّه يستحقّ امرأة جميلة. لكنّ كلّ البنات اللاتي خطبهنّ رفضنه، ليس بسبب لون جلده فحسب، وإنّما بسبب فقره أيضًا. يذكر أنّه هو الذي نصحه بأن يخطب محبوبة؛ وقد استطاع أن يقنعه بأنّها البنت الوحيدة في الدوّار التي تناسبه. ليس هناك ما هو أفضل من امرأة صالحة يمكن للرجل أن يعوّل عليها. وهو واثق من أنّ محبوبة هي من هذا النوع من النساء.

كان مصطفى فظًّا في معاملتها في البداية. يضربها باستمرار، ويشتمها على مرأى ومسمع الجميع، كما لو أنّه ينتقم من حظّه العاثر. وشيئًا فشيئًا تعوّد عليها. وكلّما تقدّم في السنّ تغيّر ولان. والحقيقة، أنّ محبوبة لم ترضخ له تمامًا رغم كلّ ما كانت تعانيه. عرفت كيف تواجهه واستطاعت أن تروّضه. وفي الأعوام الأخيرة، أصبحت تسيطر عليه إلى الحدّ الذي جعل بعض الذين يكرهونها يقول إنّها سحرته.

تبطئ في سيرها حين تقترب منه. ولكنْ بدلاً من أن تواصل طريقها، تتوقّف على بعد خطوتين. تسلّم عليه وتلقي بما كانت تحمله على الأرض وهو صرّة كبيرة تحتوي على جزز صوف.

ـــــ تعبت.. سأرتاح قليلاً..

تمسح العرق الذي يتصبّب من جبينها بكمّ فستانها:

ـــــ لم أكن أتصوّر أنّ الصوف ثقيل إلى هذا الحدّ!

ـــــ ومن أين أتيت بكلّ هذا الصوف؟

ـــــ اشتريته..

ـــــ أين؟

ـــــ من دوّار المساعيد..

ـــــ وماذا ستفعلين به؟

ـــــ سأنسجه.. نحتاج إلى بطّانيّة..

ـــــ أظنّ أنّك اشتريتِ أكثر من اللازم..

ـــــ إذا فضل منه شيء سيبيعه مصطفى..

ـــــ يبيعه؟

ـــــ آ.. في السوق.. يبيعه مثلما تبيع أنت الغنم..

إنَّها المرَّة الأولى التي يلتقيان فيها على انفراد بعد انتشار حكاية الحانوت. يلاحظ أنَّها أكثر تلقائيَّة من العادة. هل هناك علاقة ما بين تصرُّفها العفويّ هذا وتلك الحكاية؟ هل تريد أن تثبت له أنَّه لا دخل لها فيها؟ هل تريد أن تظهر له أنَّها مرتاحة الضمير ولا يراودها أيّ من هذه الأحاسيس التي تغزو كلّ من ارتكب خطأ، فيبدو مضطربًا ومشوَّش الذهن؟ كلّ هذا ممكن. لكن ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟ ماذا لو كانت تمثِّل دورًا لتضليله وخداعه؟ إنَّها امرأة ذكيَّة خلافًا لما يعتقد الجميع. ربَّما تحسّ بالألم الآن وهو على بعد خطوتين منها. ربَّما تشعر بالذنب بسبب ما يمكن أن تكون قد ارتكبته من أخطاء في حقِّه ولجأت إلى مثل هذا التصرُّف لكي لا ينكشف أمرها!

بالطبع، لا يمكنه أن يستفيد من حالة التلقائيَّة هذه، فيفاتحها في موضوع حكاية الحانوت لمعرفة ما إذا كان مصطفى هو الذي أفشى سرّ الصعوبات التي واجهته ليلة الدخلة، إذ إنَّ مقامه يمنعه من أن يتنازل إلى هذا الحدّ. ثم إنَّه ليس متأكِّدًا من أنَّها ستقول له الحقيقة. كلّ ما ينبغي أن يفعله الآن هو أن ينتظر. عليه أن يراقبها جيّدًا دون أن تنتبه إلى ذلك، وأن يكون يقظًا ويستمع بانتباه إلى كلّ ما تقوله، فقد يتسرَّب إليه من خلال ذلك شيءٌ ما يساعده في بحثه عن مصدر هذه الإشاعة.

وثمَّة شيء آخر مهمّ يودّ معرفته الآن وهو واقف على بعد خطوتين فقط من زوجة الرجل الذي أشرف على دخلته، وهو هل تعرف أنَّ زوجها سقط بعد انزلاقه على الحصير بين ساقي مبروكة العاريتين، وأنَّه شاهد منها شيئًا ما؟ مصطفى رجل رصين. وحتى لو باح لها بسرّ الصعوبات، فمن المستبعد أن يحدِّثها عن سقوطه على الأرض وعن الوضعيَّة التي وجد نفسه فيها. ولكنْ من يدري!

تحلّ عقدة المنديل الذي يغطّي رأسها. تُدخل أصابعها في شعرها. ثم تربط المنديل من جديد. ينتبه إلى أنَّ المريول الذي ترتديه تحت الفستان ضيّق جدًّا. يختلس النظر إلى صدرها، فيرى أحد نهديها. كان مكوَّرًا مثل رمَّانة ناضجة. لم يكن يتصوَّر أبدًا أنَّ محبوبة لها مثل هذا النهد. كان يعرف أنَّ صدرها جميل، لكنْ ليس إلى هذا الحدّ. يلتفت صوب البيوت، ثم يقول ليداري اضطرابه:

ـــــ إذا فضل شيء من الصوف أشتريه..

ـــــ وتبيعه فيما بعد؟

ـــــ لا.. نحن أيضًا نحتاج إلى بطّانيّة..

تنحني على جزز الصوف، ثم تقول وهي تتحسّسها بيديها الاثنتين:

ـــــ صحيح.. اشتريت أكثر من اللازم..

ـــــ سأشتري كلّ ما يفضل.. لكن بشرط أن تغسليه..

ـــــ أغسله؟

ـــــ آ.. أريده نظيفًا..

تهزّ رأسها موافقة. وعندما ترفع يدها إلى رأسها لتسوّي خصلات الشعر التي لم تفلح منذ حين في ضمّها إلى ما تحت المنديل، تغزوه رائحة جسدها، ويلاحظ أنّ المريول مبلّل بالعرق تحت إبطيها. يلعن الشيطان في سرّه عدّة مرّات. لكنّه لا يستطيع أن يقاوم الرغبة في النظر من جديد إلى نهدها. لأوّل مرّة في حياته، ينظر إلى محبوبة نظرة غير بريئة. لأوّل مرّة يشتهيها.

يدرك أنّ ما يقوم به حرام في حرام، وأنّه لا يليق برجل في مقامه وسنّه. إلاّ أنّ ذلك لا يولّد في نفسه أيّ إحساس بالذنب أو الندم أو التأسّف. والأغرب من كلّ هذا، لا يشعر أنّه يخون مصطفى أو يرتكب خطأ في حقّه أو يسيء إليه. كأنّ في الأمر شيئًا من العدل. كأنّ ما يحدث الآن هو نوع من الإنصاف الإلٰهيّ له.. ولمبروكة أيضًا! الصدف هي التي ترتّب كلّ شيء. لقد شاءت أن يرى مصطفى ليلة الدخلة شيئًا ما من مبروكة. وبعد سنوات طويلة، ها هي تضع في طريقه محبوبة. ها هو يجد نفسه واقفًا بالقرب منها في مكان خال. جاء دوره الآن لينظر إلى نهدها النافر الذي يكاد يمزّق مريولها لشدّة صلابته.

يخطو خطوتين، ثم يختلس النظر إليها. لم تبرح مكانها. لكنّها أدارت له ظهرها للتطلّع إلى الحقل الذي تقوم فيه شجرة الخرُّوب. يثبّت بصره للحظة على مؤخّرتها التي تبدو له هي أيضًا أكبر وأجمل من قبل، ثم يشيح عنها بوجهه.

ـــــ أريده نظيفًا، لأنّ مبروكة تعبانة..

لا تتكلّم ولا تتحرّك كما لو أنّها لم تسمع شيئًا. يضيف:

ـــــ وما عندها وقت لغسل الصوف في الواد..

تلتفت إليه. وحين تلتقي نظراتهما، تخفض رأسها. يُخيَّل إليه أنَّها أرادت أن تقول شيئًا ثم تخلَّت عن ذلك في آخر لحظة.

ـــــ الكثير من وقتها يمضي مع الشياه.. عندنا خمس الآن.. وبعد يومين سأذهب إلى السوق.. وسأشتري ثلاثة أو أربعة رؤوس..

ـــــ أيّ سوق؟

ـــــ الهوارب..

لم يكن ينتظر منها هذا السؤال. إلاَّ أنَّ ما يفاجئه ويستغربه حقًّا هو أنَّها تقول بعد لحظة:

ـــــ لو كنت رجلاً لعملت في التجارة..

ـــــ في التجارة؟

ـــــ آ.. في التجارة..

لا يكاد يصدّق أذنيه. يهزّ رأسه، ويسألها:

ـــــ وبماذا ستتاجرين؟

ـــــ بالدجاج والأرانب.. وحتى بالسلاحف..

تفلت منه ضحكة عالية. تبتسم وتزداد اقترابًا منه. لم تعد تفصله عنها سوى خطوة واحدة. باستطاعته الآن أن يرى بشكل أفضل نهديها المكوَّمين تحت المريول من خلال فتحة فستانها. يتشمَّم بحذر رائحة إبطيها المبلَّلين بالعرق. ثم يبتعد عنها خوفًا من أن يضعف ويزداد استسلامًا لمثل هذه الأحاسيس. يفكّر أن يغادر المكان، إلاَّ أنَّه لا يفعل. ليس من اللائق أن يتخلَّى عنها ويتركها وحيدة أمام صرَّتها الثقيلة في طريق خال لا يعبره أحد. وبينما كان يبحث عمَّا يمكن أن يقوله لها، تتقدَّم فجأة من صرَّة الصوف. ترفعها بحركة واحدة وتضعها على ظهرها بسرعة لم تتح له أيَّة إمكانيَّة لمساعدتها. ثم تقول:

ـــــ تأخَّرت كثيرًا.. يجب أن أذهب الآن..

يقفان صامتين تحت شجرة الخرُّوب.

كان في نيّتهما حين وصلا إلى المكان في هذا الصباح البارد أن يقوما بجولة طويلة في الحقول كي يخفُفا من إحساسهما بوطأة البرد. بيد أنَّ السماء أبرقت وأرعدت فجأة، وأخذ المطر يهطل. ومن حسن الحظِّ أنَّ الخرُّوبة لم تكن بعيدة عنهما، فهرعا إليها للاحتماء. لم يكن بمقدورهما أن يعودا إلى بيتيهما. فلو فعلا لوصلا مبلَّلين حتى العظم مثل فرخي دجاج. كانا يرغبان في الجلوس. لكنّ التراب تحت الخرُّوبة بارد ومبلّل. عليهما أن يظلاّ واقفين، وأن يتحلّيا بالصبر في انتظار أن يتوقَّف هذا المطر المفاجئ.

ـــ من مدّة لم ينزل مطر كهذا..

يقول مصطفى. يستند بظهره إلى جذع الخرُّوبة ويضيف:

ـــ هذا العام عام خير وبركة..

يسكت، فيغرق المكان في صمت لا يقطعه سوى خوار أبقار خافت يتناهى إليهما بين وقت وآخر من الحقول البعيدة، والصوت الذي تحدثه قطرات المطر الثقيلة وهي ترتطم بأغصان شجرة الخرُّوب وأوراقها. بيد أنَّ هذا الصمت لا يخفّف من حدّة التوتُّر الذي كان ينتابهما. كانا ينتظران هذا اللقاء على أحرّ من الجمر. وكلاهما يعوّل عليه كثيرًا لمعرفة ردود فعل الآخر. وفي الوقت ذاته يخشاه، لأنَّه يحدث بعد قيامهما بأشياء ما كان ينبغي أن يقوما بها.

مصطفى الذي تلصّص طويلاً على مبروكة عندما كانت ترعى الشياه، وحدّق للحظات في مواضع حسّاسة من جسدها لا يحقّ له حتى مجرّد النظر إليها، وحسد للمرّة الأولى صديقه على زوجته، يتحرّق شوقًا لمعرفة ما إذا كانت مبروكة قد انتبهت إلى وجوده خلف سياج الصبّار، وقالت للبشير بأنّه تلصّص عليها أو أوحت له بذلك. وثمّة أمر آخر يشغل باله وهو هذا التشابه العجيب بين ما قالته منوبيّة وما قاله البشير عن الشخص الذي كان وراء إشاعة الحانوت..

أمّا البشير الذي استسلم كثيرًا لرغباته، وسمح لنفسه بأن يركّز بصره أكثر من مرّة على نهدي محبوبة المكوّمين تحت مريولها الضيّق، فهو يميل إلى الاعتقاد بأنّ محبوبة قد لاحظت ذلك. فالنساء يفهمن عادة في هذه الأمور من رمشة عين. ولا يستبعد أن تكون قد اقتربت منه عمدًا كي

تمكّنه من أن يتطلّع بشكل أفضل إلى صدرها. إنّه يريد أن يعرف ما إذا كانت قد أخبرت مصطفى بأنّهما التقيا في الطريق بعيدًا عن الدوّار، وقالت له إنّه نظر إلى صدرها عدّة مرّات أو لمحت إلى ذلك.

يصمّم مصطفى على ألاّ يقول شيئًا بعد الآن. عليه أن يغلق فمه وينتظر. لا بدّ أن يتيح للبشير الفرصة ليقول هو أيضًا شيئًا ما عن الرعد أو المطر أو البرد أو أيّ شيء آخر من هذا القبيل. شيء قد يكون تافهًا، لكنّه سيكون بالتأكيد مفيدًا لتكوين فكرة أولى عن حالته النفسيّة. إلاّ أنّ الوقت يمضي والبشير لا يتكلّم كأنّما بلع لسانه.

ينظر مصطفى حوله بحثًا عن شيء ما يشغل به باله في محاولة للتخفيف من وطأة الصمت. يراقب الطريق المقفر. ثم يركّز بصره على قطرات المطر التي تتساقط في البرك الصغيرة المتناثرة حول شجرة الخرّوب. وبعد لحظات، يرفع رأسه ويتأمّل الأغصان الضخمة التي تحميهما من المطر. لكنّ كلّ هذا لم يجدِهِ نفعًا. أكثر من ذلك، يدرك أنّ صمت البشير المنتصب بجانبه كالعمود ليس طبيعيًا مثلما كان يتصوّر. يتساءل عمّا إذا كان امتناعه عن الكلام دليلاً على أنّه متضايق أو كئيب، فيتفاقم توتُّره.

وعندما يشعر أنّه لم يعد يحتمل هذا الصمت الذي لم يكن يتوقّعه في بداية اللقاء، يقرّر أن يضع حدًا للانتظار، وأن يقول شيئًا ما رغم وعيه التامّ بأنّ هذا التصرُّف قد يعرّضه لبعض المخاطر، ويفضح ما يعتمل في داخله ممّا يجعله في موقف صعب فيما بعد. يستجمع كلّ قواه، ويقول:

ـــــ منوبيّة خرفت..

لا ينبس البشير بكلمة ولا يقوم بأيّة حركة.

ـــــ يظهر أنّ عقلها فسد..

يظلّ البشير صامتًا. بعد تردُّد، يقرّر مصطفى أن يجازف وينتقل إلى مرحلة أكثر خطورة، فيلمّح إلى ما يحيّره ويشوّش ذهنه. وعلى أيّ حال، ليس لديه خيار آخر. لم يعد بإمكانه الآن، وقد فتح ملفّ منوبيّة، أن يتراجع أو يغيّر الموضوع أو يسكت. ولو فعل هذا، لزاد الأمر تعقيدًا..

ـــــ سمعت أنّها تقول في البئر كلامًا لا رأس له ولا ذيل..

حين يلتفت إليه البشير، يضيف:

ـــــ كلام عن حكاية الحانوت..

يحدّجه البشير بنظرة حادّة، ويسأله:

ـــــ ماذا تقول؟

ـــــ تقول إنَّ الشخص الذي وراء هذه الحكاية هو شخص قريب منك.. ويعرف أنَّك تباطأت قليلاً ليلة الدخلة.. هذا كلام فارغ..

كلّ الناس يعرفون أنَّك تأخَّرت.. هذا ليس سرًّا.. الرجال الذين تزوَّجوا صغارًا مثلي ومثلك تأخَّروا.. كلُّهم تأخَّروا.. ولا أحد فعلها بسرعة..

يقول البشير بصوت لا يشبه صوته:

ـــــ وأنت لم تحكِ أيّ شيء؟

ـــــ أحكي ماذا؟

ـــــ لم تحكِ أيّ شيء عن ليلة الدخلة؟

ـــــ أستغفر الله.. آسي البشير.. ما هذا الكلام؟

ـــــ لم تقل أيّ شيء.. لأيّ شخص؟

ـــــ حرام عليك.. آسي البشير..

ـــــ وحتى لمحبوبة؟

ـــــ إلعن الشيطان.. أنت رجل عاقل ورصين..

يُخيَّل للبشير في لحظة ما أنَّه في حلم. لم يكن يتوقَّع إطلاقًا أن يدور بينه وبين مصطفى مثل هذا الحوار وهما ينتظران تحت الخرُّوبة توقُّف المطر عن الهطول. لم يكن يتصوَّر أيضًا أنَّه سيجرؤ، وهو في مثل هذه الحالة النفسيَّة، على أن يطرح عليه السؤال الذي كان يؤجِّله باستمرار. الحقيقة، أنَّه لم يفكِّر في ذلك أصلاً. كان منشغلاً بمسألة لقائه الأخير بمحبوبة. لكنَّ الحديث اتَّخذ مجرى آخر. وها هي الأمور تتمّ بعفويَّة عجيبة وسهولة كبيرة.

إنَّه لا يصدِّق بالطبع كلام مصطفى، فهو متأكِّد من أنَّه لن يعترف بخطئه إن كان هو الذي أفشى سرّ الصعوبات. وبالرَّغم من ذلك، يشعر بأنَّ حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهله. فهذه أوَّل مرَّة ينجح فيها في طرح السؤال الذي يعذِّبه. إنَّها المرَّة الأولى أيضًا التي يجيب فيها مصطفى عن هذا السؤال، وينفي تورُّطه في إشاعة الحانوت.

وعلى أيّ حال، ليس مهمًّا في الوقت الحاضر أن يعرف ما إذا كان مصطفى صادقًا أو كاذبًا في أقواله. الآن، عليه أن ينسى ذلك كي يستمتع بهذا الإحساس العميق بالارتياح الذي لم يعرف له مثيلاً منذ فترة طويلة. ومن حقِّه أن يعتزّ قليلاً بنفسه لجرأته على طرح السؤال وهدوئه وتماسكه طوال الحوار.

وما يزيد في ارتياحه هو أنّه لم يلاحظ إلى حدّ الآن، في سلوك مصطفى وأقواله وحركاته ونظراته ما يدلّ ولو من بعيد أو بطريقة غير مباشرة، على أنّه يعلم أنّه التقى بزوجته محبوبة في طريق خال، وتطلّع أكثر من مرّة إلى نهديها.

وخوفًا من أن يعود مصطفى إلى موضوع ليلة الدخلة فيقول كلامًا قد يبدّد إحساسه بالارتياح والاعتزاز بنفسه، يشير البشير إلى برك الماء الصغيرة التي تكوّنت حول شجرة الخرُّوب:

ـــــ الحمد الله الذي أنعم علينا بهذا المطر..

ـــــ الحمد الله..

يخطو مصطفى خطوة إلى الأمام. يرفع رأسه، ويتطلّع إلى ما يظهر من السماء من خلال فجوة بين أغصان الشجرة، ثم يعود إلى مكانه. يقول البشير:

ـــــ ليس هناك ما هو أنفع من مطرالخريف.. ينفع القمح والشعير.. والزيتون.. واللوز.. والتين.. وحتى العرعار والإكليل والصنوبر.

ليست هذه هي المرّة الأولى التي يتحدّث فيها البشير عن مطر الخريف ويعدّد منافعه، فهو يفعل هذا كلّ عام تقريبًا. وبالرّغم من ذلك، يصغي إليه مصطفى باهتمام كما لو أنّه يسمع هذا الكلام لأوّل مرّة. لقد لاحظ أنّ صديقه تغيّر بعد الحوار المفاجئ الذي دار بينهما عن ليلة الدخلة تغيُّرًا واضحًا. خرج عن صمته وبدأ يتكلّم، وهذا ما كان يتمنّاه. وهو يريده أن يستمرّ في ذلك. فما قاله إلى حدّ الآن يوحي بأنّه في حالة نفسيّة أفضل بكثير ممّا كان يعتقد!

ـــــ تصوَّر الحشيش هنا بعد ثلاثة أشهر..

يشير البشير بيده إلى الأرض المحيطة بالخرُّوبة، ويتابع:

ـــــ سيكون كثيرًا وعاليًا..

ـــــ سيصل إلى الركبة..

ـــــ هذا العام عام صابة..

ـــــ أكوام القمح والشعير ستكون في كلّ مكان.. والخوابي ستمتلئ باللبن وبالزيت حتى تفيض..

ـــــ والغنم ستكثر في الأسواق..

يُدرك مصطفى أنّ الفرصة مناسبة كي يقترح عليه اقتياد شياهه إلى المراعي البعيدة كما كان يفعل في السابق، ويظهر له بذلك أنّه لا يزال

الصديق الذي يستطيع أن يعوّل عليه. إلاّ أنّه يرجئ ذلك إلى وقت آخر، لأنّ حدسه يقول له إنّ الأوان لم يحن بعد لمثل هذه الأمور.

عندما يكفّ المطر عن الهطول، يغادران المكان ويشرعان في السير ببطء وحذر لتجنُّب الحفر والأخاديد التي تجمّعت فيها المياه. وحالما يخرجان من الحقل، يتوجّهان إلى الوادي. منذ فترة طويلة، لم يشاهداه وهو في حالة فيضان. لقد هطلت أمطار غزيرة. ولا بدّ أنّ الفيضان كبير هذه المرّة. حين سمعا من بعيد هدير المياه ابتهجا تمامًا، مثلما كان يحدث لهما وهما صغيران. وكلّما اقتربا منه ازداد الهدير ارتفاعًا، فاشتدّت رغبتهما في التفرّج على الفيضان. حين يصلان يتفاجآن بأنّ كلّ أطفال الدوّار بمن فيهم أبناؤهما، كانوا هناك. كانوا واقفين على ضفّة الوادي، باستثناء أربعة منهم يسبحون في المياه الموحلة عراة تمامًا غير عابئين بالبرد وبكلّ ما يطفو على الأمواج من أغصان وجذور وأخشاب وطيور وجرذان ويرابيع نافقة.

يختبئان في مكان منزو داخل أحد الشعاب. ويتابعان المشهد في صمت. هما أيضًا كانا يفعلان ذلك عندما كانا طفلين. حالما يصلان إلى الوادي، يخلعان كلّ ما عليهما من ثياب. ودون تردُّد، يلقيان بنفسيهما في الماء ويظلاّن يتخبّطان فيه إلى أن يفقدا القدرة على الحركة من شدّة التعب. لا شيء يضاهي المتعة التي كانا يحسّان بها وهما يتصدّيان دون خوف للأمواج المتلاطمة.

وعندما يخفّ الفيضان يتوجّهان إلى الدوار. يسلكان طريقًا آخر لاختصار المسافة. يعبران أرضًا كثيرة الحجارة، لا شيء ينبت فيها سوى الحسك والبرواق. ثم ينطلقان في مسرب رملي ضيّق لا يكاد يتّسع لهما. حين يصلان إلى الحقل الذي تلصّص فيه مصطفى على مبروكة، يتوقّف البشير فجأة. ينظر حوله. ثم يستأنف السير. وفيما كان مصطفى يفكّر أنّ اللقاء الذي كان يخشاه مرّ بسلام، يسأله البشير:

ـــــ هل تذكر الكلمة التي سألتك عنها من أيّام؟

ـــــ أيّ كلمة؟

ـــــ الديموقراطيّة..

ـــــ الديموراكيّة؟

ـــــ الديموقراطيّة.. الكلمة التي قلت لك إنّي سمعتها في الإذاعة..

ـــــ آ.. أذكر..

ـــــ اليوم أيضًا تحدّثوا عنها.. تحدّثوا عنها كثيرًا.. وتحدّثوا أيضًا

عن كلمات جديدة أسمع بها أوّل مرّة.. المجلس التأسيسي.. العدالة الانتقاليّة.. أنا أعرف مجلس الأمّة.. لكنْ، لا أدري ما معنى المجلس التأسيسي.. العدالة أيضًا أعرف ما هي.. لكنْ لأوّل مرّة أسمع بالعدالة الانتقاليّة..

ـــــ إذا تحدّثوا عن الديموراكيّة في الإذاعة، فلا بدّ أنّها شيء مهمّ.. لقد قلت لك هذا المرّة الفائتة..

ـــــ آ.. ويظهر أنّي فهمت هذه المرّة..

ـــــ ماذا فهمت؟

ـــــ فهمت أنّ الديموقراطيّة هي الكيفيّة التي يحكم بها الحاكم..

ـــــ الحاكم؟

ـــــ آ.. الحاكم..

ـــــ يعني بورقيبة..

ـــــ بورقيبة.. أو الزين.. أو الذي أخذ مكانه الآن..

لا يقول مصطفى شيئًا، فهو لا يفهم في هذه الأمور. ثم إنّه يتجنّب الحديث عن الحكّام وكلّ ما يتعلّق بهم، حتى بعد الثورة، خوفًا من العمدة وخصوصًا من الحرّاس والبوليس، فهو يرتعد لمجرّد رؤيتهم في السوق.

مبروكة منهمكة تمامًا في العمل في الزريبة.

يراقبها البشير بإعجاب. ثم يدلف إلى الغرفة لتبديل حذائه وجواربه المبلَّلة. وحالما يخرج، يتوجَّه إلى الحقل القريب لتفقُّد شياهه، ثم يعود إلى الدار. كانت مياه المطر الذي هطل منذ حين قد تسرَّبت إلى الزريبة واستقرَّت في وسطها. أزالت مبروكة طبقة التبن الرقيقة التي كانت تكسو الأرض، وشرعت في تجفيف ما ركد تحتها من الماء. كانت تغرفه بطاسة صغيرة وتسكبه في السطل، ثم تحمله إلى الحقل لسقي الأشجار.

ـــــ لا تتعبي نفسك..

ـــــ لم يبق ماء كثير..

ـــــ لماذا تسقين الأشجار؟.. إنَّها لا تحتاج إلى ذلك بعد هذا المطر..

ـــــ ولكنْ، ماذا سنفعل بكلِّ هذا الماء؟

كم هو مبارك هذا اليوم!.. المطر نزل بما فيه الكفاية، فارتوت الأرض والأشجار والنباتات. ومصطفى مكّنه هذا الصباح من أن يزيح عن كاهله عبئًا ثقيلاً. صحيح أنَّه انتبه فيما بعد إلى أنَّه لم ينف بشكل واضح ودقيق توزُّطه في إشاعة الحانوت. وهو لم يصدِّقه تمامًا على أيّ حال. لكنَّ كلامه أشاع في نفسه ارتياحًا هائلاً. وها هي الآن مبروكة تقوم بما كان ينبغي أن تقوم به. لم تنتظر أن يأمرها بذلك. لقد لاحظت أنَّ زريبة الشياه تضرَّرت، فشرعت فورًا في تجفيف المياه وإزالة التبن المبلَّل لتكون جاهزة.

ـــــ استريحي قليلاً..

تقف على بعد خطوتين منه وهي لا تزال تمسك بالسطل. بعد لحظة، تضعه على الأرض، وتمسح العرق الذي يسيل على عنقها. ينتبه إلى أنَّ فستانها صار باليًا. منذ فترة طويلة لم يشتر لها ثيابًا جديدة. نسي أن يفعل ذلك. وهي كالعادة لم تتقدَّم بأيّ طلب، رغم أنَّها تعرف جيِّدًا أنَّه لا يبخل عليها بشيء.

ـــــ سأشتري لك فستانًا وبلوزة..

تبتسم ابتسامة خفيفة، ثم تخطو نصف خطوة صوبه، فتغزوه رائحة عرقها.

ـــــ تريدين شيئًا آخر؟

تهزّ رأسها بالنفي، ثم تمسح العرق من جديد. يُخيَّل إليه أنَّها صارت

أطول قامة وأقلّ سمنة من قبل. لكنّ جمالها لا يزال كما هو. ينظر إلى شعرها المصبوغ بالحنّاء وإلى يديها اللتين لا تزالان تحافظان على نعومتهما. وفي اللحظة التي يحمد الله على أنّه قيض له امرأة في مثل هذه الرصانة والجمال، يتذكّر السؤال الذي يعذّبه. هل تعرف مبروكة أنّ مصطفى رأى شيئًا من أنوثتها؟

الغريب في الأمر أنّ هذا السؤال لا يسبّب له أيّ انزعاج، خلافًا للعادة. أكثر من هذا، يشعر أنّه أمام فرصة نادرة لمعرفة الجواب. فلأوّل مرّة، يحسّ أنّ لديه ما يكفي من الجرأة لطرح السؤال. لا شكّ أنّ الحوار الذي دار بينه وبين مصطفى في بداية الصباح وتصرّف خلاله بحكمة قد ولّد فيه هذه الجرأة وعزّز ثقته بنفسه.

ولأوّل مرّة أيضًا، يحسّ أنّ بإمكانه ألاّ ينهار لو قالت له إنّها خمّنت أنّ مصطفى رأى شيئًا منها لما سقط بين ساقيها. من المؤكّد أنّه سيشعر بألم شديد كما لو أنّ أحدًا طعنه بخنجر حادّ. وقد يفقد السيطرة على أعصابه لوقت قصير فيشتمها، كما لو أنّها هي المسؤولة عمّا حدث، كما لو أنّها هي التي اختارت مصطفى وزيرًا لليلة الدخلة، كما لو أنّها هي سبب الصعوبات التي واجهها. لكنّه لن ينهار..

يفكّر في الطريقة التي سيثير بها الموضوع، وخصوصًا في ما ينبغي أن يقوله في البداية؛ فالكلمات الأولى هي التي تحدّد المنحى الذي سيتّخذه الحديث فيما بعد، لذلك يجب أن يختارها بدقّة.

ـــــ كنت مع مصطفى لمّا بدأ المطر ينزل..

لم يسبق أن نطق بهذا الاسم أمامها منذ انتشار حكاية الحانوت. يُخرج من جيبه سيجارة. يشعلها، ويشرع في تدخينها بنهم:

ـــــ ذهبنا إلى الواد..

ـــــ الواد؟

ـــــ نعم.. وتفرّجنا على الفيضان..

ـــــ هل كان كبيرًا؟

ـــــ آ..

ـــــ من مدّة ما رأيت الواد وهو في حالة فيضان..

ـــــ لمّا يفيض المرّة القادمة سنتفرّج عليه معًا..

ـــــ أنا أخاف من الواد..

ـــــ تخافين؟.. لماذا؟

ـــــ أخاف من أن أنزلق ويجرفني الماء..

يُدرك أنَّ الحديث بدأ يتَّخذ اتِّجاهًا آخر، وأنَّ الأمر أخذ يفلت منه. وخوفًا من أن يضيِّع هذه الفرصة التي قد لا تتاح له مرَّة أخرى، يقرِّر أن يشرع في إثارة الموضوع تمهيدًا لطرح السؤال.

ـــــ أحبّ أنْ أتحدَّث معك عن شيء..

ـــــ أيّ شيء؟

ـــــ شيء قديم..

ـــــ ما هو؟

ـــــ شيء قديم جدًا..

يسكت برهة، يستجمع فيها قواه ويواصل:

ـــــ هل ما زلتِ تذكرين ليلة الدخلة؟

تخفض رأسها وتتجمَّد في مكانها. كان واضحًا أنَّ كلامه قد صدمها. يعتريه قليل من الاضطراب. لكنَّه يصمِّم على المواصلة.

ـــــ هل تذكرين ما وقع فيها؟

تنكمش على نفسها. وبحركة مباغتة، تتراجع مقدار خطوتين كما لو أنَّها تريد الهرب منه.

ـــــ تذكرين لمَّا سقط مصطفى.. بعدما انزلق.. على الحصير؟

يتفاقم اضطرابه. إلاَّ أنَّه لا يسكت.

ـــــ تذكرين أين سقط؟

تنحني فجأة على السطل. تلتقطه بسرعة، ثم تدخل الزريبة. يفاجأ بسلوكها هذا. لم يكن يتوقَّع على الإطلاق أن تتصرَّف على هذا النحو. آلمه أن تتخلَّى عنه وهو في مثل هذه الحالة، وأن تستأنف عملها قبل أن يكمل حديثه. ينتابه انفعال شديد، فيأمرها بلهجة جافَّة:

ـــــ عودي إلى مكانك..

تمتثل لأمره على الفور. تقف حيث كانت. وتحني رأسها.

ـــــ ضعي السطل على الأرض..

تلقي بالسطل بين قدميها، وتشبك ذراعيها. يرمي بما تبقَّى من السيجارة ويدعسه بقدمه. يصغي إلى الأصوات القادمة من البيوت المجاورة للحظة طويلة، ثم يثبّت بصره عليها. كانت جامدة. لا شيء فيها يتحرَّك سوى طرف منديل رأسها الذي تداعبه الريح.

يحاول أن يواصل الحديث، لكنّه يُدرك أنّه لم يعد قادرًا على ذلك. انفعاله الشديد أفسد كلّ شيء. لم يستطع أن يسيطر على أعصابه في اللحظات الحاسمة، ففقد ثقته بنفسه وتلاشت جرأته، والأخطر من ذلك تصرّف بغباء. كيف ينفعل إلى هذا الحدّ؟ ولماذا يقسو عليها إلى هذه الدرجة؟ صحيح أنّ ردّة فعلها تثير الحيرة والاستغراب، لكنْ كان عليه أن يبقى متماسكًا وأن يتحلّى بالصبر.

وخلافًا لما كان يظنّ، فإنّه ليس جاهزًا تمامًا للتحكُّم في مثل هذه المواقف الحسّاسة الصعبة. ويبدو أنّ الارتياح الذي غمره بعد حواره مع مصطفى، وكلّ ما رافقه من اعتزاز وافتخار بنفسه، قد جعله يبالغ بل ويخطئ في تقدير الأمور. يندم، فيعاتب نفسه بشدّة على تصرُّفه الخشن معها، ويشعر برغبة في أن يعتذر لها عمّا بدر منه. لأوّل مرّة منذ أن تزوّجها، تتملّكه رغبة كهذه. بيد أنّه لن يفعل ذلك بالطبع. وكلّ ما يستطيع أن يقوم به هو أن يقول لها كلامًا أو يتصرّف تصرُّفًا تستنتج منهما أنّه لم يعد غاضبًا عليها، وأنّه نادم على ما صدر عنه. هكذا، تشعر هي بالاطمئنان، ويحافظ هو على هيبته ولا يبدو ضعيفًا أمامها.

ـــــ من مدّة ما رأيت مطرًا كهذا..

يقول وهو يدنو منها بحذر.

ـــــ تعرفين.. المطر في هذا الوقت نافع لكلّ شيء..

ترفع رأسها. يرتاح لذلك، فيسألها بلهجة هادئة ليوحي لها بأنّ انفعاله قد تبدّد:

ـــــ هل كلّ الزريبة كانت غارقة في الماء؟

ـــــ آ..

ـــــ الأرض هنا واطئة..

ـــــ آ..

ـــــ لا بدّ أن نغيّر مكان الزريبة..

يتفحّص الأرض حوله بحثًا عن مكان ملائم. لا بدّ أن يكون قريبًا من الدار، بحيث يمكن مشاهدته من داخلها عبر الشبّاك كي يستطيع تفقُّد الشياه دون أن يخرج. وهذا ما يفعله بين وقت وآخر في الليالي المقمرة أو في الفجر عندما يكون البرد قارسًا، أو حين لا يشعر بأيّة رغبة في الخروج.

ـــــ وجدت المكان الذي سننقل إليه الزريبة..

يقول بحماس وهو يزداد دنوًا منها.

ـــــ المكان الذي تقفين فيه..

ـــــ هنا؟

ـــــ آ.. هنا..

يُدرك من نظراتها وحركاتها أنَّ خوفها منه تلاشى، فيتناقص إحساسه بالندم.

ـــــ انظري.. الأرض مرتفعة هنا.. وهي أمام الشبَّاك..

ينظر إلى التبن المبلَّل المكوَّم خارج الزريبة وإلى الماء الراكد في وسطها. ثم يأمرها قبل أن ينصرف:

ـــــ تعالي.. جفِّفي الماء الباقي..

ـــــ إذا رفضت أن تقتله أنت.. سأقتله أنا؟

ـــــ إلعني الشيطان..

ـــــ لا بدَّ أن يُقتل.. ابن الكلب..

ـــــ القتل حرام..

ـــــ أعرف..

ـــــ إذا كنت تعرفين، فلماذا تقولين هذا الكلام؟

منذ عدّة أيّام، لم تتحدّث منوبيّة عن إشاعة الحانوت. ولم تشتم مصطفى ومحبوبة. ظنَّ حامد أنّها نسيت الحكاية أو أنّها لم تعد تعيرها أيّ اهتمام، وأنّه نجح أخيرًا في إقناعها بألاّ تتدخّل في هذا الموضوع. لكنْ ها هو يكتشف أنّه كان مخطئًا في ظنّه.

لم تمهله لحظة واحدة. حالما استيقظ من النوم ورفع رأسه عن الوسادة، استدارت إليه، وأخذت تتحدّث عن مصطفى. لا بدَّ أنّها رأته في الحلم، أو أمضت جزءًا طويلاً من الليل وهي تدرس فكرة قتله. لم يكن يتصوّر أنّها تكرهه إلى هذا الحدّ.

ولأوّل مرّة، يتساءل عمّا إذا كانت تتّخذ من حكاية الحانوت ذريعة لتنتقم منه بسبب خصومة قديمة أو خلاف حول أمر ما.

ـــــ سأقتله أنا.. إذا رفضت..

يكظم حامد غيظه. يتفرّس في وجهها بعد أن يستند بأعلى ظهره إلى الجدار. أشعّة الشمس لم تتسلّل بعد إلى الغرفة. لكنْ باستطاعته أن يراها بوضوح. شعرها المحلول مشعّث منفوش. وحول عينيها الغائرتين في محجريهما هالتان داكنتان. شفتها السفلى منتفخة ومتدلّية. والتجاعيد تحاصر عينيها وفمها وجبينها. تبدو له عجوزًا هرمة، كما لو أنّها تقدّمت في العمر عشرة أعوام في ليلة واحدة.

ـــــ وكيف ستقتلينه؟

ـــــ أذبحه..

تسري قشعريرة في كامل جسمه، فيقول مندهشًا:

ـــــ تذبحينه؟

ـــــ آ.. أذبحه..

ـــــ وبماذا ستذبحينه؟

ـــــ بسكّين..

يسألها بلهجة ساخرة:

ـــــ ومن أين ستأتين بهذا السكّين؟

ـــــ من أين!.. ألا تعرف أنّ لدينا سكّينًا؟

تفلت منه ضحكة عالية. تلتفت إليه على الفور، وتحدّق فيه.

ـــــ ستذبحين رجلاً كاملاً بطوله وعرضه بسكّين نقشّر به البطاطا!.. أتظنّين أنّه فرُّوج؟

ـــــ ليس هناك ما هو أسهل من القتل.. جسم البني آدم كالفخّار..

ـــــ ولكنْ كيف ستقبضين عليه؟.. مصطفى رجل أصغر منك.. وأقوى منك..

ـــــ بالحيلة.. سأحفر له حفرة.. وسيسقط فيها كالضبع..

ـــــ أيّ حفرة؟

ـــــ لا أدري.. ما زلت أبحث..

ـــــ صرت تخرفين.. الله يهديك..

تتراجع لتضع رأسها على الوسادة. ثم تسحب الغطاء نحوها إلى حدّ الرقبة. في العادة، تكون خارج الفراش في مثل هذا الوقت. يصغي إلى تنفُّسها المنتظم. ثم يجز ببطء شديد جسده في اتّجاهها. وبعد تردُّد طويل، يمدّ ساقه ويلامس فخذها.

وخلافًا لما كان يتوقّع، لا تبتعد عنه، بل يُخيَّل إليه في لحظة ما أنّها تضغط بفخذها على ساقه. إلاّ أنّ ما يفاجئه حقًّا هو أنّها تضع يدها على صدره. وبعد وقت قصير، تدسّها تحت قميصه. تداعب بطنه. ثم تنزلق بها شيئًا فشيئًا إلى الأسفل.

ـــــ وماذا ستربحين من قتله؟.. لا شيء.. لا شيء..

تواصل الانزلاق بيدها إلى الأسفل دون أن تنبس بكلمة.

ـــــ سيقبض عليك الحزاس.. سيضربونك حتى يسيل دمك.. سيقيّدون رجليك ويديك بالسلاسل.. ويرمونك في الحبس..

وفيما بعد سيقتلونك.. سيشنقونك.. أو يطلقون عليك الرصاص..

تحوم بيدها حول ذكورته. وفجأة تمسك بها وتضغط عليها. تخترق جسمه ارتعاشة قويّة، فيغمض عينيه ويسكت. بعد لحظة قصيرة، تقول:

ـــــ قبل أيّام، رأيت امرأته عند البئر.. وتحدّثنا عن حكاية

الحانوت..

ـــــ أمام النساء؟

ـــــ لا.. كنّا وحدنا..

ـــــ وماذا قالت؟

ـــــ تظاهرت بأنّها لا تعرف أيّ شيء..

ـــــ ويمكن أن تكون صادقة..

تسحب يدها فورًا. يفتح عينيه وهو يحسّ بالندم على ما قال. لو بقي صامتًا لظلّت يدها الدافئة تحتضن ذكورته موفِّرة له هذه المتعة التي لم يشعر بها منذ فترة طويلة..

ـــــ أنا متأكّدة من أنّها تكذب.. تعرف ماذا قالت لي؟.. قالت إنّ كلّ الناس يعرفون أنّ سي البشير تأخّر.. لأنّ كلّ الذين تزوّجوا مثله صغارًا تأخّروا..

منذ انتشار الحكاية، لم تخطر بباله أبدًا هذه الفكرة. ولأوّل مرّة، يدرك أنّ أيّ شخص في الدوّار يمكن أن يكون وراء إشاعة الحانوت، إذا ثبت أنّ كلّ الناس يعرفون كما تقول محبوبة أنّ البشير تأخّر ليلة الدخلة.

ـــــ الرجال الذين تزوّجوا صغارًا لم يتأخّروا كلّهم..

تهمس في أذنه وهي تزداد اقترابًا منه. تدسّ ركبتها بين فخذيه، وتتابع:

ـــــ أنت تزوّجت صغيرًا..

ـــــ آ..

ـــــ لمّا تزوّجت كنت أصغر من البشير ومن مصطفى..

ـــــ أظنّ..

ـــــ وعالجتني من الضربة الثانية..

لا يزال يذكر أنّ الصعوبات التي واجهها كانت قليلة وبسيطة. لكنّ الأمور لم تتمّ بمثل هذه السرعة. ومع ذلك، فإنّه يهزّ رأسه بالإيجاب وقد غمره إحساس بالزهو.

ـــــ من الضربة الثانية، قمت بواجبك..

ـــــ آ..

ـــــ وأنا سهّلت لك الأمر..

ـــــ صحيح..

ـــــ عرفت كيف أعطيك نفسي..

تلصق جسدها بجسده، وتضيف:

ـــــ أتذكّر كلّ شيء.. كأنّ ليلة الدخلة كانت البارحة.. أجلسوني على حصير، ثم خرجوا وتركوني وحدي في الغرفة.. لما فتحت الباب شعرت بالخوف.. كانوا قد نصحوني بأن أخفض رأسي عندما تدخل.. لكنّي نظرت إليك.. كنت أريد أن أراك قبل أن تتعرّى.. هل تذكر ماذا كنت تلبس؟

ـــــ كنت ألبس جبّة ككلّ عريس..

ـــــ جبّة بيضاء.. وتحتها صدريّة كالصدريّة التي يلبسها سي البشير والأعيان.. وفي رجليك كنترة جلد.. وعلى رأسك شاشيّة حمراء.. وكنت نظيفًا تفوح منك رائحة الكولونيا.. كنت كالباي في زمانه..

ـــــ ليس هناك شيء أحسن من العرس..

ـــــ آ..

ـــــ الدنيا كانت رخيصة في ذلك الوقت.. والعرس لم يكن يكلّف كثيرًا..

ـــــ وهل تذكر ماذا كنت ألبس أنا؟

ـــــ نعم..

ـــــ ملحفة جديدة.. وتحتها مريول بالأكمام..

ـــــ الملحفة اشتريتها لك من القيروان لمّا اشتريت الجبّة..

ـــــ وفي رجلي خلخال فضّة.. وفي معصمي فردة ذهب..

ـــــ أذكر.. لكنْ من سلّفك كلّ هذه الحليّ؟

ـــــ الخلخال تسلّفته من أمّ سي البشير.. وفردة الذهب من امرأة تاجر في دوّار المحافيظ.. في ذلك الوقت، كانت الوحيدة التي تملك الذهب..

ـــــ الناس كانوا أفقر من الآن..

ـــــ كنت أيضًا مكحّلة ومسوّكة..

ـــــ آ..

ـــــ أذكر أنّهم حنّوا لي كلّ يديّ ورجليّ..

ـــــ الحنّاء أيضًا اشتريتها من القيروان..

ـــــ ما زلت أذكر الماركة.. «حنّة قابس»..

ـــــ أحسن حنّاء في الدنيا..

ـــــ اشتريت لي أيضًا صابونة معطّرة.. ونصف لتر من الكولونيا..

ـــــ نعم..

ـــــ أذكر أنّك أرسلت لي قبل العرس ثلاث قفف من الهدايا. كلّ يوم سوق، قفّة كبيرة كالزنبيل مليئة بالثياب وكلّ ما تحتاجه العروس..

إنّه واثق من أنّه لم يرسل لها سوى قفّتين. وهو يذكر جيّدًا أنّ أمّه خاصمته حين عاد من السوق بالقفّة الثانية. قالت له إنّه يدلّلها أكثر من اللازم، وإنّه يبذّر فلوسه، لأنّ بنتًا مثلها لا تستحقّ أكثر من قفّة واحدة. وبالرّغم من ذلك يهزّ رأسه موافقًا.

ـــــ اشتريت لي أيضًا مشطين ومرآة كبيرة..

تصمت. ثم تسحب ركبتها من بين فخذيه وتبتعد عنه. الضوء يزداد كثافة في الغرفة. يشعر برغبة في الخروج كي يستنشق هواء الصباح النقيّ ويتمشّى قليلاً. لكنّه يقرّر أن يظلّ في مكانه طالما لم تخرج منوبيّة من الفراش. يغمض عينيه ويشرع في تذكُّر عرسه. وحين يفتحهما، تبدو له منوبيّة في حال أفضل من تلك التي كانت عليها حين استيقظ من النوم. وبينما كان يتساءل عمّا إذا كان الحديث عن عرسهما واستعادة الذكريات الجميلة عنه قد خفّفا من غضبها على مصطفى أو أنسياها فكرة قتله، تنهض ثم تقول وهي تترك الفراش:

ـــــ إذا رفصت أن تقتله.. سأقتله أنا..

كلّ ما تمنّاه مصطفى، وهو مختبئ في الممشى المظلم ليلة دخلة البشير، تحقّق في الحلم الذي رآه البارحة. وقد تمّ ذلك بسهولة كبيرة وفي وقت قصير جدًا، ودون أيّ إحساس بالألم أو الذنب. كأنّ ما حدث كان لا بدّ له أن يحدث. أمّا اللذّة التي عصفت به لبضع لحظات واهتزّت لها كلّ خليّة في جسده، فبقاياها لا تزال حاضرة. ولولاها لما انتابه حالما استيقظ هذا الإحساس بالانتشاء الذي لم يعهده أبدًا من قبل.

يشعر بارتياح حين يكتشف أنّ محبوبة لم تكن في الغرفة. ينظر في شرود إلى السماء من خلال الشبّاك المفتوح. ثم يستلقي على ظهره ويغطّي رأسه بطرف البطّانيّة، فتقفز إلى ذهنه صور متفرّقة من الحلم الفاحش. يحاول أن يطردها. بيد أنّه لا يستطيع. وعندما تستحوذ عليه، يستسلم لها معزّيًا نفسه بأنّ الأمر لا يعدو أن يكون حلمًا، وأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي قدّر له أن يرى ما رأى في منامه.

الظلام حالك. والممشى الذي يختبئ فيه طويل وضيق. والناس في الخارج يقهقهون ويتكلّمون بأصوات عالية. كان هناك أهل العروس تتقدّمهم منوبيّة. وكان هناك آخرون. نساء وأطفال لم يسبق له أن رآهم ولا يدري من أين قدموا. ورجال كانوا قد ماتوا منذ سنين طويلة، لكنّه لا يستغرب وجودهم هناك. كان هناك أيضًا بعض أفراد الفرقة الموسيقيّة الذين لم يتوقّفوا عن العزف طوال أيّام العرس الثلاثة. خرج مرّتين، وأمرهم بأن يكفّوا عن ذلك احترامًا لسي البشير المنهمك في أداء واجبه. لكنّهم لم يمتثلوا لأمره.

أطلّ البشير برأسه من باب الغرفة. هرع إليه وهمس له نصائح جديدة، ثم عاد إلى مخبئه. لم يعد يحتمل الجلوس على الكرسي الذي وضعوه له في منتصف الممشى، فنهض وراح يذرع المكان جيئة وذهابًا وهو يصغي إلى ما يقوله الناس في الخارج. وحين استنجد به البشير مرّة أخرى، قرّر أن يدخل الغرفة ليرى بنفسه إن كان صديقه قد عمل بنصائحه، وإن كانت مبروكة قد اتّخذت الوضعيّة المناسبة لتسهيل العمليّة.

كانت عارية تمامًا. انحنى عليها ليحكم وضع الوسادة تحت خصرها، فنظرت إليه وابتسمت. اعتراه الارتباك والتفت إلى الخلف، لكنّه لم ير أحدًا. بحث عن البشير في الممشى. إلاّ أنّه لم يعثر له على أثر، كأنّ الأرض انشقّت بغتة وابتلعته. عاد إلى الغرفة كئيبًا ومضطربًا. لم يفهم ما حدث. كان الشيء الوحيد الذي يشغل باله بعد اختفاء البشير المحيّر هو أن يفشل

في أداء مهمَّته كوزير وأن يسخر منه الناس. كان يتصوَّر أنَّ مبروكة قد ارتدت ثيابها أو غطَّت جسدها على الأقلّ بعد اختفاء زوجها، لكنَّه وجدها كما تركها.

سألها عن البشير وسبب اختفائه، فأجابت بأنَّ ذلك ليس مهمًا، وأنَّ ما ينبغي أن يقوم به في الوقت الحاضر هو أن يتوكَّل على الله ويباشرها، لأنَّ المسألة طالت أكثر من اللازم والناس الذين ينتظرون في الخارج رؤية قميصها ملطَّخًا بالدم قد سئموا الانتظار. اقتنع بكلامها على الفور وشرع في خلع ثيابه. وعندما دنا منها، احتضنته بقوَّة، وقالت له إنَّها تعرف أنَّه فكَّر في فترة ما أن يخطبها، وإنَّها كانت ستوافق لو فعل ذلك. انتابه الخوف من أن يحدث له ما حدث للبشير وهو يتأهَّب لدخولها. إلاَّ أنَّ خوفه سرعان ما تبدَّد، فعالجها من الضربة الأولى.

يرتدي ثيابه على عجل ويخرج. يسرع الخطى في البداية. وعندما يبتعد عن البيت، يتمهَّل في السير. يتذكَّر فجأة أنَّ البشير يذهب دائمًا إلى السوق في مثل ذلك اليوم، فيغمره ارتياح عميق، لأنَّه يشعر أنَّه لا يمتلك من الجرأة ما يكفي كي يلتقيه ويتحدَّث إليه وحتى ينظر إليه بعد كلّ ما حدث له في الحلم مع مبروكة. بعد مسافة طويلة، يتوقَّف عن السير. يقرفص فوق مرتفع صغير من الرمل بالقرب من سياج الصبَّار، ويرسل نظره بعيدًا في كلّ الاتِّجاهات. في أغلب الحقول أبقار وخرفان وحمير ترعى الكلأ ورجال ونساء يعملون. الوقت ليس باكرًا مثلما كان يظنّ. يرفع رأسه. الغيوم كثيفة داكنة. ولا شيء في السماء يساعد على تحديد موقع الشمس. وعندما يشعر أنَّه لم يعد يحتمل لسعات البرد، يقوم ويستأنف السير بخطى سريعة.

وبدلاً من أن يعود إلى البيت، يقرِّر أن يقوم بجولة في الدوَّار بحثًا عن عمل في البيوت أو الحقول يمكِّنه من الحصول على قليل من الفلوس. منذ فترة طويلة لم يعمل. والبشير لم يطلب منه أن يقود الشياه إلى المراعي البعيدة منذ أن انتشرت حكاية الحانوت. أغلب ما كسبه من الفلوس خلال موسم الحصاد قد نفد. ومن حسن الحظّ أنَّ المؤونة من القمح والشعير والزيت تكفي لبضعة أشهر.

فرص العمل قليلة جدًا في الدوَّار وغيره من الدواوير المجاورة. وحتى إن عثر على عمل، فلن يدوم أكثر من يوم أو نصف يوم أو بضع ساعات.. أقصى ما يمكن أن يُعهد به إليه هو أن يحفر حفرة أو يقتطع حطبًا أو يقتلع شجرة أو يسدّ فجوة في سياج. لكنَّه لا يبالي بذلك، فالمهمّ

هو أن يكسب قليلاً من الفلوس في انتظار أن يبدأ موسم قطاف الزيتون الذي يعوّل كثيرًا، وأن يظهر لمحبوبة أنّه يعمل فتكفّ عن انتقاده.

يمرّ ببيت البزّي. يتوقّف أمام الساحة التي كانت خالية إلاّ من بضع دجاجات وكلب هرم راح ينبح عندما رآه. كان باب البيت موصدًا. ينادي البزّي مرّتين. لكنّ لا أحد يردّ. يتابع السير وقد صمّم على أن يمرّ بالبيت ثانية بعد أن يكمل جولته، فهو يحبّ البزّي وزوجته مريم ويرتاح لهما كثيرًا. وبين وقت وآخر، يزورهما ليساعدهما في بعض الأعمال إن كانا في حاجة إلى مساعدة، وخصوصًا ليشرب برفقتهما كأسًا أو كأسين من الشاي الصينيّ اللذيذ المهرّب من ليبيا، الذي يرسله لهما من العاصمة ابنهما الشرطيّ، وإن تناقص ذلك كثيرًا بعد الثورة.

حالما يقترب من بيت المولدي، يهجم عليه كلبه الضخم الشرس الذي يخشاه الجميع. يلتقط حجرًا ويقذفه به. ينفتح الباب بغتة ويخرج المولدي. يصبّحه بصوت عالٍ. إلاّ أنّ المولدي لا يردّ عليه. لا يعبأ بذلك، فهو لم يكن ينتظر أن يقترح عليه شغلاً ما. وهو لم يسع إلى ذلك. على أيّ حال، فالمولدي هو أحد الرجال القليلين الذين لا تربطه بهم علاقة ودّ، وقد صبّحه، لأنّه لا يجوز أن يلتقي رجلاً في الصباح ولا يصبّحه.

عندما يصل إلى بيت حامد، يتباطأ في السير. في السابق، كان لا يتردّد لحظة واحدة في الدخول ليسلّم عليه وعلى منوبيّة، ويتحدّث إليهما بعض الوقت. لم يشعر أبدًا أنّ منوبيّة تحبّه أو تستلطفه، لكنّه لم يكن يبالي بذلك. فهو يعرف أنّها لا تحبّ أحدًا باستثناء صهرها سي البشير. كان يفعل ذلك لأجل حامد الذي يقدّره ويعزّه لطيبته ورصانته، ولأنّه هو الذي ختنه مثلما ختن كلّ الذكور في الدوّار. أمّا الآن، فإنّه لا يشعر بأيّ رغبة في أن يدخل البيت، وأن يقابل منوبيّة، بعد أن اكتشف أنّها تعتقد أنّه هو الذي كان وراء حكاية الحانوت.

بيتهما الذي يتكوّن من غرفتين متلاصقتين كأغلب البيوت يوجد وسط حقل، ويؤدّي إليه مسرب متفرّع عن الطريق الذي يشقّ الدوّار. كان باب إحدى الغرفتين مفتوحًا. يتوقّف للحظة ويرهف السمع. لكنّ لا شيء يتناهى إليه، بالرّغم من أنّ البيت ليس بعيدًا عن الطريق. يرسل بصره إلى الحقل فيرى حامد. كان يتمشّى وحيدًا بمحاذاة السياج. يحسّ برغبة قويّة في الاقتراب منه والتحدّث إليه. لكنّ ليس هناك أيّ فجوة في السياج للتسلّل منها إلى الحقل.

وما يزيد الأمر تعقيدًا أنّ الحقل محاط من الجهات الثلاث الأخرى

بحقول تحدها أسيجة عالية من الصبّار. والطريقة الوحيدة للقائه هي أن يعود أدراجه ويسلك المسرب الصغير، ثم يمرّ أمام البيت معرّضًا نفسه لخطر الالتقاء وجهًا لوجه بمنوبيّة.

بإمكانه بالطبع أن يبلغ هدفه دون أن يبرح مكانه. يكفي أن ينادي حامد. لكنّ المشكلة أنّ المسافة التي تفصل بينهما ليست قصيرة. لا بدّ أن يرفع صوته كي يسمعه. وهو يخشى إن فعل أن تسمع منوبيّة النداء، فتخرج وتراه.

وما يزعجه ليس أن تراه وهو برفقة زوجها وبالقرب من بيتهما، فمن حقّه أن يكلّم حامد ويلتقيه متى شاء وأينما شاء، وهو لن يتخلّى لها عن هذا الحقّ. لن يحرم نفسه من مقابلة حامد بسبب عجوز خرفة مثلها. ما يزعجه أن تلتحق بهما وتشارك في الحديث وتدسّ أنفها في كلّ ما سيقولانه، فيفسد اللقاء. يلتقط حجرًا صغيرًا، ويرميه بكلّ ما لديه من قوّة صوب حامد. لكنّ الحجر يسقط بعيدًا عنه. يعيد الكرّة إلى أن ينتبه إلى وجوده. يرفع ذراعه ويحرّكها مشيرًا إليه بالاقتراب من السياج.

يدنو حامد من المكان وهو يتطلّع إليه بشكل يدلّ على أنّه لم يتعرّف عليه.

لا يتفاجأ بذلك، فهو يعلم أنّ بصره ضعف في الأعوام الأخيرة. لكنّ ثمّة شيء لفت نظره عندما صار على بعد بضع خطوات من السياج، وهو أنّه توقّف فجأة وسلّم عليه بشيء من البرود. يُدرك أنّه مضطرب، وأنّه لم يكن متحمّسًا للحديث إليه كالعادة. كان واضحًا أنّ أمرًا ما يضايقه، وأنّه غير مرتاح لهذا اللقاء. لم يشاهده أبدًا في مثل تلك الحالة. لا بدّ أنّ منوبيّة قد قالت له شيئًا من هذا الهذر الذي قالته لمحبوبة عند البئر. ولكنّ كيف يسمع كلام هذه العجوز الخرفة؟

وخوفًا من أن يزيد في إحراجه أو يسبّب له مشكلة، يودّعه ويستأنف جولته. يتوقّف عند أغلب البيوت المتبقّية. يسلّم بحرارة على كلّ الذين يلتقيهم. يداعب الأطفال ويمازحهم. يعرض خدماته على الجميع. لكنّ لا أحد يقترح عليه عملاً. يواصل جولته خارج الدوّار. وعندما يهذه التعب، يقرّر أن يرجع إلى بيته. في طريق العودة، يمرّ ببيت البزّي ممنّيًا نفسه بأن يجده مفتوحًا هذه المرّة ليشرب كأس شاي ساخنة تدفّئه في هذا الصباح البارد. الباب لا يزال موصدًا. ينادي البزّي بصوت عال عدّة مرّات. لا أحد يردّ.

الارتياح الذي غمر البشير بعد لقائه الأخير بمصطفى لم يدم سوى بضعة أيّام.

يستعيد كلّ الحوار الذي دار بينهما تحت شجرة الخرُّوب، فيدرك أنّه لم يحسن استغلال تلك الفرصة النادرة التي أتاحها له مصطفى. صحيح أنّه استطاع أن يطرح عليه السؤال الذي يعذّبه، لكنّه لم يطرحه مثلما كان ينبغي أن يُطرح. والآن تبدو له أجوبة مصطفى غير دقيقة. وكلّما فكّر فيها ازداد تأكّدًا من أنّه لم ينف بشكل واضح تورُّطه في إشاعة الحانوت. فكلّ ما فعله هو أنّه أبدى استغرابه الشديد من أن يطرح عليه السؤال مكتفيًا بترديد عبارات لا تعني شيئًا في نهاية الأمر.

يسير صوب بيت مصطفى تاركًا خلفه قطيع الشياه. بعد بضع خطوات، يتوقّف. الباب مفتوح على مصراعيه. لا شيء في الساحة سوى كومة من العرعر والإكليل. كان على يقين من أنّ مصطفى في البيت. لا بدّ أنّه فرغ من تناول الغداء، وأنّه مستلق على الحصير بجوار محبوبة يرتشف الشاي بمتعة، فهو يحبّ لحظات الاسترخاء هذه التي تعقب الغداء. تتملّكه الرغبة في أن ينادي مبروكة ليعهد إليها بالشياه، ويتوجّه فورًا وبأقصى سرعة إلى بيت مصطفى. ينتصب أمامه وبدون مقدّمات، يطرح عليه السؤال الذي يؤرقه مثلما يجب أن يطرح طالبًا منه أن يجيب عنه هذه المرّة إجابة واضحة دقيقة لا تحتمل أيّ تأويل.

بعد لحظة، يفطن إلى أنّه استسلم لأحاسيسه أكثر من أيّ وقت مضى. إنّ رغبته في التوجّه إلى بيت مصطفى، وهو في هذه الحالة النفسيّة للتحدّث معه في أمر مهمّ وخطير رغبة مجنونة لا يمكن أن تؤدّي إلى أيّ شيء. لقد تصرّف بحكمة وصبر منذ انتشار الحكاية إلى حدّ الآن كي لا تسوء علاقته بمصطفى. التزم الحذر. لم يتسرّع أبدًا، ولم يرتكب أيّ خطأ.

عليه أن يواصل على هذا المنوال إن أراد أن يصل إلى نتيجة. وستتاح له بالتأكيد فرص أخرى لكي يطرح السؤال على مصطفى بالأسلوب الذي يليق بمقامه.

يعود إلى القطيع، وينظر بإعجاب إلى شياهه المتناثرة حوله. كانت كلّها منهمكة في الرعي. منذ فترة طويلة، لم يقع على شياه تُقبل على الكلأ بمثل هذه الشراهة. كانت هزيلة عندما اشتراها. وفي بضعة أشهر، سمنت كثيرًا إلى درجة أنّ إحداها صارت بطيئة في سيرها لضخامة أليتها.

سيبيعها بأسعار مرتفعة وسيجني أرباحًا هائلة. ستبلغ ثروته حدًا لم يكن يتصوَّره حين باع الحانوت، وانتقل إلى تجارة الغنم. وبالطبع سيتزايد حسَّاده في الدوَّار. وربَّما يروِّجون عنه إشاعة جديدة قد تكون أسوأ من إشاعة الحانوت. كأن يقولوا عنه إنَّه مخنَّث مثلاً!

يُخرج من جيب صدريَّته الدفتر الصغير الذي يسجِّل فيه كلَّ حسابات البيع والشراء. يقلِّب أوراقه متفحِّصًا الأرقام التي دوَّنها بعد آخر عمليَّة بيع. إذا تمكَّن من أن يبيع هذه الشياه بالأسعار التي حدَّدها، فإنَّ ما سيتجمَّع لديه من المال يكفيه لفترة طويلة. وسيعيش سعيدًا مثل ملك، خصوصًا أنَّه صار على يقين من أنَّ الثورة التي تخوَّف منها في البداية لن تشكِّل أيَّ خطر على ثروته.

يتذكَّر أمَّه. كانت تعطف عليه وتدافع عنه وتحميه، فقد كان رقيقًا ومسالمًا جدًا إلى درجة أنَّ إخوته كانوا يستهزئون به باستمرار ويضربونه في بعض الأحيان. أمَّا أغلب أطفال الدوَّار، فقد كانوا يعتبرونه جبانًا وكانوا كثيرًا ما يشبِّهونه بـ «البنت». وحتى آخر لحظة من حياتها، ظلَّت أمُّه متخوِّفة من أن يحدث له بعد موتها من المشاكل ما ينغِّص عليه الحياة.

ترى ماذا كانت ستقول لو عاشت إلى حدّ الآن ورأته وهو غنيٌّ ومحترم؟

يُغلق الدفتر، ويدسه بعناية في جيبه. وحالما يرفع رأسه، تقع عيناه على محبوبة. لا شكَّ أنَّها شاهدته عندما خرجت، فالمكان الذي هو فيه لا يمكن أن تخطئه العين. تتوجَّه بسرعة إلى الحقل الذي يقع خلف البيت. تختفي لوقت قصير ثم تظهر. ولكنْ بدلاً من أن تعود إلى البيت، تدنو من كومة العرعر والإكليل التي انتبه آنذاك إلى أنَّ حجمها قد تضاءل. ثم تقف أمامها وتتجمَّد في مكانها.

لا يدري لماذا خُيِّل إليه أنَّها كئيبة. هل تخاصمت مرَّة أخرى مع مصطفى؟ هل بلغها خبر سيِّئ أو سمعت كلامًا عن إخوتها لم يرق لها؟ بعد برهة، يتساءل عمَّا إذا كان مخطئًا في تصوُّره. ماذا لو كانت تتصرَّف على هذا النحو ليس لأنَّها كئيبة أو مستاءة من أمر ما، وإنَّما لأنَّها لاحظت أنَّه ينظر إليها باهتمام، فقرَّرت ألاَّ تدخل إلى البيت وأن تبقى حيث هي لكي يواصل النظر إليها!

ليس بمقدوره أن يتمتَّع بمشاهدة صدرها المثير مثلما حدث في لقائه الأخير بها، فهي بعيدة.. فضلاً عن أنَّها تقف أمام الكومة بطريقة لا تسمح له بذلك. يفكِّر أن يزداد اقترابًا منها، بيد أنَّه لا يبرح مكانه خوفًا من

أن يفضح نفسه، وخصوصًا من أن يخرج مصطفى بغتة ويضبطه وهو مستغرق في عمليَّة تلصُّص واضحة على زوجته. ومن جديد، تتراءى له صورة نهديها المكوَّمين تحت مريولها الضيِّق المبلَّل بالعرق عند الإبطين.

ولأوَّل مرَّة، منذ انتشار إشاعة الحانوت، يتساءل عمَّا كان يمكن أن يحدث لو تزوَّج قبل مصطفى. من المؤكَّد أنَّ صديقه سيختاره وزيرًا له تمامًا مثلما فعل هو. وبما أنَّ مصطفى قد تباطأ هو أيضًا في أداء مهمَّته ليلة الدخلة كما اعترف له بذلك، فمن المحتمل جدًّا أن يدخل إلى غرفة العروسين لتقديم المساعدة الضروريَّة. ومن الممكن أن تقع عيناه آنذاك على جزء من جسد محبوبة العاري. ومن المحتمل أيضًا أن تزلَّ قدمه على الحصير، فيقع على الأرض ويجد نفسه بين ساقي محبوبة.. الصدف عجيبة!.. وما حدث لمصطفى يمكن أن يحدث له هو أيضًا!

لو حصل له هذا لشاهد هو أيضًا ما كان يجب ألاَّ يراه. وينبغي أن يعترف بأنَّ ذلك لن يضايقه كثيرًا لو كان الأمر يتعلَّق به هو فقط. بالطبع، سيحسّ بحرج شديد في البداية. لكنَّه في المقابل، سيعتبر نفسه محظوظًا وسيشعر في مكان ما من أعماقه الدفينة بما يشبه الغبطة، لأنَّه رأى أنوثة امرأة ليست زوجته، خصوصًا أنَّ هذه المرأة ليست بيضاء مثل سائر النساء في الدوَّار وإنَّما سوداء كما يقولون. والسوداء لا تشبه البيضاء على ما يبدو. وهناك من يزعم أنَّ أنوثتها أفضل للرجال!

ولكن كيف كان سيتصرَّف فيما بعد مع مصطفى؟ يدرك الآن أنَّ الأمر ليس سهلاً كما كان يظنّ. ينتبه أيضًا إلى شيء لم يخطر بباله على الإطلاق، وهو أنَّ صديقه قد تضرَّر هو أيضًا ممَّا حدث في ليلة الدخلة. الآن فقط يُدرك صعوبة الموقف الذي وجد المسكين نفسه فيه عندما رفع رأسه بعد سقوطه، واكتشف أنَّه محاصر بساقي امرأة عاريتين. الآن فقط يفطن إلى أنَّ مصطفى استطاع بتصرُّفه الحكيم أن يمحو آثار هذه الصدمة في فترة وجيزة. الحقيقة أنَّه ساعده إلى حدّ ما في ذلك، فقد قرَّر بعد وقت قصير أن يطوي هذه الصفحة المشؤومة من حياته، وأن يتصرَّف مع مصطفى كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث.

ومن حسن الحظّ أنَّه لم يستسلم للرغبة في الذهاب إلى بيت مصطفى التي تملَّكته منذ حين. لو فعل لندم ندمًا شديدًا على ذلك، لأنَّ رجلاً لم يفقد صوابه وحافظ على هدوئه في ظروف استثنائيَّة وفي مسألة حسَّاسة كهذه، لا يستحقّ أن يُعامل بهذا الأسلوب الفجّ. بالطبع، لن يتخلَّى أبدًا عن طرح السؤال الذي يؤرقه، وسيطالب صديقه بإجابة

واضحة تضع حدًا لهذه الشكوك التي تنهشه. لكنّه لن ينسى أبدًا أنّ مصطفى نجح في تجاوز ما حدث ليلة الدخلة، واستطاع أن يحافظ على صداقته له وعلى علاقة طبيعيّة بمبروكة بعد كلّ ما شاهد في تلك الليلة. وطوال الأعوام الماضية، لم يبدر منه ما يمكن أن يُفسد علاقتهما.. إلى أن ظهرت إشاعة الحانوت.

ما كانت الأمور لتتمّ على النحو الذي تمّت به لو كان الوزير رجلاً آخر. كان لا بدّ أن تمرّ كلّ هذه الأعوام، وأن تحدث ثورة، وأن تظهر هذه الإشاعة لكي يدرك ذلك جيّدًا! لو اختار وزيرًا آخر لاتّخذت الأمور على الأرجح منحى مختلفًا، إذ ليس سهلاً أن يحافظ الإنسان على هدوئه عندما يحدث له ما حدث لمصطفى. من الصعب أن يرى الرجل ساقي أنثى عاريتين مفتوحتين، وخصوصًا أنوثتها أو حتى جزء صغير منها في جوّ يعبق برائحة الشهوة، ويبقى لفترة طويلة متماسكًا ووفيًا إلى هذا الحدّ. لو رأى هو أنوثة محبوبة وهي عروس، فهل كان باستطاعته أن يظلّ على علاقة طبيعيّة بمصطفى وزوجته طوال هذه الأعوام؟ هل كان بمقدوره أن يبقى متماسكًا ومخلصًا وأمينًا طوال كلّ هذه الفترة؟ لا يدري. كلّ ما يدريه الآن هو أنّ مصطفى تصرّف برصانة وصبر ونبل وحكمة خلال كلّ هذه السنوات.

يستدير ويخطو بضع خطوات صوب الشياه. يراقبها للحظة طويلة ثم يعود إلى حيث كان. ومن جديد، يتطلّع إلى بيت مصطفى. يكتشف أنّ محبوبة تركت مكانها، وأنّها منهمكة في كنس الأرض أمام عتبة الباب. يتذكّر أنّه وعدها خلال لقائهما الأخير بأنّه سيشتري الصوف الذي سيتبقّى لديها بعد أن تنسج ما تحتاج إليه من بطّانيّات. هل تسرّع في وعده؟ كان من المفروض أن يتحدّث مع مبروكة في الموضوع قبل ذلك. كان عليه أن يستشيرها وأن يسألها عمّا إذا كانت تريد هذا الصوف.

على أيّ حال، ليس باستطاعته أن يتراجع الآن. لا يجوز أن يخلّ بوعده، فهو رجل أمين وصادق وخصوصًا صاحب كلمة، والجميع يشهد له بذلك. ثم إنّ الصوف شيء ثمين ومطلوب. وإذا تبيّن فيما بعد أنّ مبروكة لا تحتاجه، فإنّ بإمكانه أن يبيعه في السوق. عندما يلتقي بها على انفراد، سوف يذكّرها بوعده كي يُظهر لها أنّه لا يزال ملتزمًا به. وبالطبع، سينتهز الفرصة ويختلس النظر إلى نهديها. وقد يذهب بعيدًا هذه المرّة فيتطلّع إليهما طويلاً، فهي لم تقل أيّ شيء على ما يبدو لمصطفى عن لقائهما الأخير.

تتوقَّف عن الكنس. تعبر الساحة طولاً وعرضًا وهي تتفحَّص المكان كأنَّها تبحث عن شيء أضاعته، ثم تقف. وبعد برهة، ترفع رأسها وتنظر في اتِّجاهه. ليس بمقدوره أن يعرف بالضبط إن كانت تنظر إليه هو أو إلى شيء آخر في الأرض التي تمتدّ بينهما، وإن لم يكن هناك ما يستحقّ النظر.. فالمسرب الذي يشقّ الأرض مقفر. ولا شيء خلفه سوى حقول خالية في مثل ذلك الوقت إلاَّ من بضعة غربان. بعد تردُّد طويل، يرفع ذراعه ويحرِّكها محيِّيًا. ليس من عادته أن يحيي بهذه الطريقة، ولا يدري كيف فعل ذلك! لا تبدر منها أيّ حركة. يخطو خطوتين صوبها. عندئذ تمدّ ذراعها إلى الأمام دون أن ترفعها. كأنَّها تودّ أن تردّ على تحيَّته ولا تقدر على ذلك.

ـــ صباح الخير..

تقول محبوبة دون أن ترفع رأسها أو تتوقّف عن غسل الصوف. تنظر إليها منوبيّة وهي لا تكاد تصدّق أذنيها. وبعد تردّد، تقول:

ـــ صباح الخير..

عندما وصلت منوبيّة إلى الوادي ورأت محبوبة هناك، قرّرت ألاّ تكلّمها وأن تتجاهلها تمامًا، لأنّ ما حدث أثناء لقائهما الأخير عند البئر رسّخ قناعتها بأنّها لن تقدّم لها أيّ شيء مهما كانت تبحث عنه. وعلى أيّ حال، فإنّها لم تعد في حاجة إلى هذا. أصبحت بمرور الأيّام أكثر يقينًا من أنّ مصطفى هو الذي كان وراء انتشار حكاية الحانوت، وأنّ محبوبة قامت في ذلك بدور لا يُستهان به، لأنّها تغار كثيرًا من مبروكة، وتريد أن تنتقم من سي البشير الذي كانت تحبّه سرًا وتحلم بأن يتزوّجها.

اختارت منوبيّة مكانًا في طرف البركة التي تتجمّع حولها كلّ النساء للغسيل. أرادت أن تبتعد عنها قدر الإمكان رغم أنّ الماء أقلّ صفاء في ذلك الموضع. أدارت لها ظهرها لكي لا تراها حين ترفع رأسها. وانهمكت في العمل. لكن ها هي الأمور تتّخذ مجرى آخر. ها هي محبوبة تبادرها بالكلام بعد حادثة البئر. بعد كلّ الشتائم التي قذفتها بها، ها هي تسلّم عليها مثلما كانت تفعل في السابق كما لو أنّ شيئًا لم يحدث.

هل أرادت أن تُظهر لها أنّها لا تزال تحترمها رغم كلّ ما حصل؟ ربّما. ولعلّها سلّمت عليها لأسباب أخرى. ربّما ندمت على ما بدر منها أثناء لقائهما الأخير، وتودّ أن تصالحها. وربّما تخاصمت مع مصطفى خصومة عنيفة جعلتها تتراجع عن موقفها من إشاعة الحانوت. ومن يدري! ربّما ترغب في أن تصارحها بما يعتمل في نفسها. كلّ هذا وغيره من الأسباب ممكن إذا تعلّق الأمر بأمرأة خبيثة مثلها.

عليها أن تسيطر على هذا التوتّر الخفيف الذي أخذ يعتريها منذ أن سلّمت عليها، وأن تحكم إغلاق فمها لكي لا يفلت منها ما قد تندم عليه فيما بعد. عليها أن تتحلّى بالصبر وتنتظر لترى ما ستؤول إليه الأمور. ومن حسن الحظّ أنّها ليست مستعجلة. والبرد الذي كانت تحسّ به، وهي في طريقها إلى الوادي، خفّت حدّته، بعد أن انقشعت الغيوم وأطلّت الشمس.

تستدير ببطء شديد إلى محبوبة. وحين تتأكّد من أنّها منهمكة في العمل، تحدّق في وجهها. لا شيء فيه يدلّ على أنّها كئيبة أو منشغلة البال.

بالعكس، كلّ ما فيه يوحي بأنّها هادئة أكثر من أيّ وقت مضى. وفي اللحظة التي تشيح بوجهها عنها، تسألها:

ـــــ كيف حال مبروكة؟

ـــــ بخير.. لا بأس..

ـــــ من مدّة ما رأيتها..

لا تجد منوبيّة ما يمكن أن تقوله، فهي لم تكن تتصوّر أنّ محبوبة قادرة على أن تطرح عليها سؤالاً من هذا النوع، بل وحتى أن تذكر اسم ابنتها في حضورها. ومن جديد تسألها:

ـــــ وما رأيها في الحكاية؟

ـــــ أيّ حكاية؟

ـــــ حكاية الحانوت..

تكظم منوبيّة غيظها. تقول متظاهرة بعدم الاكتراث:

ـــــ مبروكة لا تهتمّ بهذا النوع من الحكايات..

ـــــ كيف لا تهتمّ؟.. لو كنت مكانها لبحثت عن..

تقاطعها بحدّة:

ـــــ مبروكة امرأة عاقلة.. رصينة..

يعمّ المكان صمت ثقيل. وفيما كانت منوبيّة تتساءل عمّا إذا كانت قد ارتكبت خطأ فادحًا حين قاطعتها بحدّة وانفعال، تتوقّف محبوبة عن غسل الصوف، وتقول:

ـــــ البشير لا يستحقّ هذا..

ـــــ آ..

بعد لحظة طويلة، تضيف:

ـــــ والذي وراء هذه الحكاية شخص حسود.. وسافل..

تكفّ منوبيّة عن العمل بدورها، وتنظر إليها بعينين جامدتين. تتابع محبوبة:

ـــــ ربّي يعلم من هو.. لكن أنا أشكّ في واحد..

ـــــ من؟

ـــــ المولدي..

ـــــ المولدي؟

ـــــ آ.. المولدي..

ـــــ لكنَّ المولدي لا يعرف أنَّ سي البشير تأخَّر أكثر من غيره ليلة الدخلة..

ـــــ أكثر من غيره.. أو أقلّ من غيره.. هذا لا يعني أيّ شيء.. المهمّ أنَّه تأخَّر.. وكلّ الناس يعرفون كما قلت لك لمَّا تقابلنا عند البئر.. لأنَّ كلّ الرجال الذين تزوَّجوا وهم صغار تأخَّروا.. المشكلة أنَّهم يشربون كثيرًا قبل أن يدخلوا على نسائهم.. والشراب يصعّب عليهم الأمور..

تنشر جزز الصوف التي كانت قد انتهت من غسلها على صخرتين مسطّحتين ملساوين لتجفّ، وتضيف:

ـــــ كلّهم تأخَّروا.. بمن فيهم البشير ومصطفى..

تدرك منوبيَّة أنَّ الفرصة مناسبة لكي تتباهى أمام محبوبة التي تسعى بكلّ الوسائل إلى تضليلها وتبرئة ساحة زوجها، فتقول:

ـــــ حامد كان أصغر من مصطفى لما تزوَّج.. ولكنَّه لم يتأخَّر..

ـــــ ولا دقيقة؟

ـــــ ولا دقيقة..

ـــــ متأكّدة؟

ـــــ آ.. من الضربة الأولى عالجني.. في رمشة عين كان داخلي..

ـــــ كنت صغيرة لمَّا تزوَّجت؟

ـــــ كنت في عمر مبروكة.. ويمكن كنت أصغر منها وأصغر منك.. أذكر أنَّ حامد عالجني من أوَّل ضربة، لأنِّي سهّلت له الأمر.. عرفت كيف أعطيه نفسي..

تلوذ محبوبة بالصمت. تنظر منوبيَّة إلى ما يُحيط بالوادي كما لو أنَّها تريد أن تتأكَّد من أن لا أحد في المكان غيرهما. ثم ترفع صوتها:

ـــــ في ذلك الوقت، كنَّا نساء.. كنَّا نعرف كيف نساعد رجالنا.. بنات وقتك وبنات اليوم لا يعرفن شيئًا.. الواحدة لا تعرف إلاَّ أن تفتح ساقيها.. وتبقى تنتظر كالبقرة..

ـــــ والرجال في وقتك كانوا أفضل..

ـــــ الرجل رجل.. لكن لا بدَّ أن تساعده الأنثى.. ليلة الدخلة ليلة صعبة.. وما ثمَّة في هذه الدنيا رجل لا يخشاها.. لا يخاف من أن يتأخَّر كثيرًا.. ومن أن يقول عنه الناس إنَّه ليس فحلاً..

تستأنف محبوبة عمليَّة الغسل. تغمس جزّة صوف في ماء البركة، ثم تفرشها على الصخرة التي أمامها، وتشرع في طرقها بعصا غليظة غير

عابئة برشاش الماء المتطاير الذي يصيب وجهها وصدرها وذراعيها.

ـــــ ولماذا تشكّين في المولدي؟

ـــــ لأنّه لا يحبّ البشير..

ـــــ ومن قال لك إنّه لا يحبّ البشير..

ـــــ لا أحد.. لكنّي أعرف..

ـــــ ولماذا لا يحبّه؟

ـــــ لا أدري..

تتساءل منوبيّة عن الدوافع التي جعلت محبوبة تزجّ بالمولدي في مسألة خطيرة كهذه! من الواضح أنّها تسعى إلى دفع الشبهات عن زوجها وتوجيهها في اتّجاه خاطئ لتضليلها. لكنّ، لماذا اختارت المولدي؟ ولماذا تريد أن تحوّله إلى كبش فداء؟ منوبيّة تعرف المولدي معرفة عميقة. وهي لا تحبّه، إذ تجده مغرورًا ومتكبّرًا، خصوصًا بعد أن اشترى الحانوت وتحسّنت حاله. إنّها على يقين من أنّه لا يحترم إلاّ القليل من رجال الدوّار. لكن هناك شيء لن يدخل عقلها وهو أنّ المولدي يكره البشير.

هل حثّها مصطفى على ترويج هذه الخدعة التي لن تنطلي على أحد أم أنّها تقوم بذلك من تلقاء نفسها؟ من المؤكّد أنّها تعرف أنّ البشير لا يزال حريصًا على الصداقة التي تربطه بالمولدي. لعلّها تروّج مثل هذا الكلام لتدمّر هذه الصداقة.

ولكن لماذا؟ ماذا ستجني من ذلك؟ الله وحده يعلم ما يدور في رأس هذه الفاجرة، تقول منوبيّة:

ـــــ المولدي لا يكره البشير..

ـــــ كيف لا يكرهه وهو يشتكي من أنّه باع له الحانوت بثمن غال؟

ـــــ هذا كلام رجال فيما بينهم.. ونحن النساء لا دخل لنا فيه..

ـــــ آ.. ولكنّ قلبي يقول لي إنّه لا يحبّه..

ـــــ قلبك أسود كالبرمة..

تفقد منوبيّة صبرها، ويتفاقم توتّرها. لقد استطاعت أن تتحكّم في نفسها لوقت طويل لترى ما سيؤول إليه الأمر. لكنّ ها هي تزداد تأكّدًا من أنّ محبوبة تضحك عليها. يتصاعد الغضب داخلها، فتصرخ:

ـــــ أنت كذّابة..

تتوقّف محبوبة عن العمل، وتحدّق فيها بدهشة.

ـــــ تعرفين الحقيقة.. يا فاجرة.. لكنّك تكذبين..

ـــــ أيّ حقيقة؟

تنهض منوبيّة دون أن تكفّ عن شتمها. تندفع محبوبة واقفة بدورها وهي تمسك بالعصا. تتملّك منوبيّة رغبة قويّة في بطحها على الأرض وتمريغ رأسها في الطين وتعرية فخذيها ومؤخّرتها لإذلالها. إلاّ أنّها لا تفعل. ليس ترفُّعًا أو تعقُّلاً وإنّما خوفًا منها. لأوّل مرّة، تشعر أنّ محبوبة لن تسكت عليها لو هاجمتها، وأنّها ستنهال عليها ضربًا بالعصا.

منذ فترة طويلة، لم يشاهد مصطفى صدر محبوبة عاريًا.

كان مستلقيًا على الفراش حين التحقت به بعد أن أكملت شغلها في الغرفة المجاورة. نزعت وشاحها. ثم خلعت فستانها على مهل. لكنْ خلافًا للعادة، لم تندسّ تحت البطّانيّة، وإنّما جلست بجواره مستندة بظهرها إلى الجدار. إلاّ أنّ ما فاجأه حقًّا هو أنّها خلعت مريولها بعد لحظات، ثم انحنت على صدرها وراحت تتفحّصه على ضوء المصباح.

يثبت مصطفى بصره على نهديها وقد اجتاحته رغبة قويّة في لمسهما. تنظر إليه محبوبة وتبتسم، حين تنتبه إلى أنّه يراقبها. وبعد تردُّد قصير، يمدّ يده ويضعها على أحد النهدين. وعندما يلاحظ أنّها لم تتضايق من ذلك، وأنّها لم تدفع يده مثلما كان ينتظر، يمرّر أصابعه ببطء على النهد، ثم يمسك بالحلمة. يداعبها قليلاً فتنتصب. يهتاج ويفقد السيطرة على شهوته. ينحني ويلتقط الحلمة بشفتيه ويشرع في مصّها بلهفة، تمامًا مثلما كان يفعل في الأعوام الأولى التي أعقبت الزواج كلّما سمحت له بذلك.

تجرّ محبوبة نفسها إلى طرف الفراش مخلّصة نهدها من فمه. يتأمّل للحظة الحلمة الورديّة التي لا تزال منتصبة، ثم يمدّ يده للإمساك بها من جديد. تدفعه بلا اكتراث.

ـــــ الحمد الله على ما خلق وصوّر!

يتمتم دون أن يحيد بنظره عن النهدين. كان يعرف أنّ صبرها بدأ ينفد، وأنّه سيعرّض نفسه لشتائمها، وربّما لما هو أخطر من ذلك لو تمادى في لعبته. لكنّ طعم الحلمة اللذيذ الذي بقي في فمه أفقده صوابه. ومن جديد ينحني على صدرها.

ـــــ بعد رأسك..

تصيح وهي تدفعه بقوّة. يقول بانفعال:

ـــــ وأنت غطّي صدرك..

ـــــ لماذا أغطّي صدري؟

ـــــ لا أطيق أن أراه عاريًا..

ـــــ غمّض عينيك..

ـــــ لا أستطيع..

ـــــ تبارك الله.. بعد حكاية الحانوت صرت فحلاً..

يظلّ لبرهة صامتا كأنّه لم يستوعب ما سمع. ثم يسألها باندهاش:

ـــــ ماذا تقصدين؟

ـــــ تعرف ماذا أقصد..

ـــــ لماذا تتحدّثين عن حكاية الحانوت؟

ـــــ لأنّك تغيّرت منذ أن ظهرت..

ـــــ تغيّرت؟

ـــــ آ.. منذ أن قالوا إنّك أنت الذي عالج مبروكة، صرت تعتبر نفسك فحلاً..

ترتدي مريولها، ثم تضيف:

ـــــ الرابح في هذه الحكاية هو أنت.. الناس يتصوّرون أنّك أكبر فحل في..

يقاطعها وهو يندفع نحوها رافعًا ذراعه لتهديدها:

ـــــ اسكتي يا سودة.. اسكتي يا عبدة..

جسده كلّه يرتجف من شدّة الغضب. يَخِزُ بسبّابته عنقها ويتفرّس في وجهها.

ـــــ لولاي لبقيت بائرة.. ومن يقبل الزواج من امرأة مثلك؟

ـــــ الرجال الذين كانوا يحبّونني كثيرون مثل شعر الرأس..

ـــــ من يحبّ سودة مثلك؟

ـــــ رجال أغنى وأجمل منك..

منذ المرّة الأولى التي حدّثته فيها عن حكاية الحانوت، اكتشف أنّ باستطاعتها أن تكون وقحة وأن تتصرّف بلا حياء وحشمة.

لكنّه لم يتخيّل على الإطلاق أنّ وقاحتها يمكن أن تبلغ هذا الحد، خصوصًا مع رجل أنعم عليها بالزواج فأنقذها وأنقذ شرفها وشرف أهلها في وقت لم يكن يلتفت أحد إليها. لقد تجاوزت الحدود. وواجبه كزوج يقتضي أن يعاقبها على الفور.

ينقضّ عليها. يمسك بشعرها ويجذبه بقوّة. تصرخ من شدّة الألم، وتتقلّب وهي تدفعه لكي تخلّص نفسها. لكنّه يضغط بكلّ ثقل جسده على صدرها. يظلّ جاثمًا فوقها إلى أن تكفّ عن الحركة وتستسلم. وعندما تشرع في البكاء، يترك شعرها ويبتعد عنها.

حالما يسند رأسه إلى الوسادة، يتذكّر إخوتها الذين هدّدوه بأنّهم سيمرّغون رأسه في التراب ويبولون عليه لو ضربها. يحمد الله على أنّ الشجار توقّف عند هذا الحدّ. لم يسل لها دم ولم تنكسر لها سنّ ولم تنشرم لها شفة، كما كان يحصل في السابق.

وبينما كان يفكّر في ما حدث مستغربًا المنحى الذي اتّخذه الحديث لينتهي بهذا الشجار العجيب، يُفاجأ بها تجرّ نفسها صوبه، وتقول:

ـــــ سامحني..

لم تكن لديه أيّة رغبة في أن يستجيب لطلبها آنذاك. دمه لا يزال يغلي من شدّة الغضب. لكنّ عندما تتوسّل إليه للمرّة الخامسة يلعن الشيطان، ويهزّ رأسه بالإيجاب.

ـــــ أسامحك بشرط..

تتطلّع إليه باهتمام. تبدو له بعينيها المتورّمتين من أثر البكاء وشفتيها الغليظتين وشعرها المجعّد المنفوش بشعة أكثر من أي وقت مضى..

ـــــ امسحي دموعك..

بعد لحظة، يأمرها كمن يأمر طفلاً:

ـــــ والآن.. امخطي أنفك..

حين تفرغ من ذلك، يقول:

ـــــ ما حدث الآن يبقى سرًا بيني وبينك.. هذا هو الشرط..

تحرّك رأسها موافقة. يخطر بباله أن يوضح كلامه كي يتأكّد من أنّها فهمته جيّدًا، بل وأن يقول لها صراحة إنّه لا يريد أن تُخبر إخوتها بما حدث في هذه الليلة. إلاّ أنّ كبرياءه تمنعه من ذلك.

تزداد اقترابًا منه. يختلس النظر إلى نهديها المكوّمين تحت المريول، ثم يغمض عينيه وهو يتساءل عمّا إذا كانت قد فعلت ذلك لكي تتيح له الفرصة لمداعبة صدرها تكفيرًا عن ذنبها. وحتى لو لم تفكّر في ذلك، فإنّه واثق الآن وبعد الخطأ الذي ارتكبته منذ حين من أنّها لن تقول شيئًا لو دسّ يديه تحت المريول وعزى نهديها وانهال عليهما تقبيلاً ومصًا وعضًا.

لكن شهوته خمدت الآن..

ـــــ غسلت الصوف؟

ـــــ نعم..

ـــــ غسلته كلّه في يوم واحد؟

ـــــ آ..

ـــــ هل سيفضل منه شيء؟

ـــــ أظنّ..

لأوّل مرّة يحدّثها عن الصوف. من عادته ألاّ يخوض معها في مثل هذه المسائل. وقد فعل ذلك لكي يظهر لها أنّه سامحها حقًّا.

ـــــ شيء كثير؟

ـــــ آ.. وسأبيعه للبشير..

ـــــ البشير!

ـــــ وعدني بأن يشتري كلّ ما يفضل..

ـــــ متى؟

ـــــ من أيّام..

ـــــ أين رأيته؟

ـــــ في الدوّار..

تسكت لحظة، ثم تضيف:

ـــــ رأيته بالصدفة..

ـــــ ولماذا سيشتري الصوف؟.. صار يتاجر بالصوف الآن..

ـــــ قال إنّهم يحتاجون إلى بطّانيّة أخرى..

قفزت إلى ذهنه صورة مبروكة وهي واقفة في الحقل في آخر مرّة شاهدها. يتبدّى له الفستان الذي يلتصق بجسدها ويبرز مؤخّرتها بوضوح لا يحتمل كلّما هبّت الريح. ثم يتذكّر الحلم الفاحش الذي جمعه بها وهي عارية تمامًا. لكنّ، بدلاً من أن يطرده من ذهنه يستعيده بكلّ تفاصيله دون أن ينتابه أيّ إحساس بالذنب هذه المرّة. كأنّه يعوّض بذلك عن الحرمان الذي شعر به عندما صدّته محبوبة ولم تمكّنه من مضّ نهديها. كأنّه أيضًا يخونها ليعاقبها على تصرّفها. عندما يطفئ المصباح تقول له:

ـــــ اليوم رأيت منوبيّة..

ـــــ أين؟

ـــــ في الوادي..

ـــــ وما زالت تهذي؟.. ما زالت تقول هذا الكلام الفارغ؟..

ـــــ آ..

ـــــ لو ماتت لارتاحت.. حتى عزرائيل نسيها بسبب أفعالها..

ـــــ قلبي لا يقول لي خيرًا.. لا بدَّ أن تعملَ شيئًا..

ـــــ أعمل ماذا؟

ـــــ شيء يجعلها تغلق فمها.. وتنسى الحكاية.. ولا تتكلَّم عنك..

ـــــ الله يسامحها..

ـــــ لا بدَّ أن تشتكي إلى حامد..

ـــــ حامد!.. المسكين لا يستطيع أن يفتح فمه أمامها.. أو يقول لها كلمة واحدة!..

يفكِّر أن يخبرها بأنَّه رأى حامد قبل أيَّام، ولاحظ أنَّه لم يكن متحمِّسًا للحديث إليه خوفًا من منوبيَّة التي قالت له بالتأكيد شيئًا من هذا الكلام العجيب عن تورُّطه في حكاية الحانوت. إلاَّ أنَّه لا يفعل.

ـــــ أنا، على أيِّ حال، لن أسكت عنها.. احترمتها أكثر من اللازم.. المرَّة القادمة إذا سبَّتني أسبُّها..

ـــــ ماذا؟.. تسبِّين عجوزًا خرفانة؟.. صرت مثلها؟.. اسكتي الآن.. ونامي..

بعد لحظة طويلة، يرفع رأسه ويقول:

ـــــ لا تنسي ما قلت لك.. ما حدث هذه الليلة يبقى سرًّا بيني وبينك..

يفتح البشير الدفتر الصغير الذي يسجّل فيه كلّ حساباته. يقلّب أوراقه طويلاً، ثم يدسّه في جيب صدريّته، ويقول لمبروكة التي كانت تراقبه:

ـــــ لم أربح كثيرًا هذه المرّة..

ـــــ لماذا؟.. الشياه كانت سمينة..

ـــــ آ.. لكنْ بعتها رخيصة..

ـــــ السوق كانت كاسدة؟

ـــــ آ.. وأنا كنت تعبان.. وما أردت أن أعود بها إلى البيت..

تقترب مبروكة من الباب المفتوح على مصراعيه. المطر كفّ عن النزول. لكنّ السماء لا تزال ملبّدة بالغيوم، حتى إنّه يتعذّر معرفة إن كانت الشمس قد غربت أم لا. ما زال هناك ما يكفي من الضوء. والوقت لم يحن بعد للتوجُّه إلى الحقل واقتياد الشياه الجديدة إلى الزريبة. في الطريق، أطفال يجمعون الحلزون الذي خرج من مكامنه بعد نزول المطر. تنظر إلى بعضهم، ثم تعود إلى مكانها.

ـــــ ربحت أقلّ ممّا كنت أنتظر..

ـــــ احمد الله..

ـــــ الحمد الله..

تفتح صندوق حليّها الصغير الذي كانت قد أخرجته منذ حين من الخزانة ووضعته بالقرب منها على الحصير، ثم تنحني عليه وتشرع في تقليب ما في داخله. إنّها تحبّ هذا الصندوق. وهي شديدة التعلُّق بكلّ ما فيه، خصوصًا سوار الذهب.

يراقبها وهي تتفحّص حليّها قطعة قطعة. يغمره إحساس بالفخر وهو يرى كلّ هذه الحلي التي استطاع أن يشتريها لها.

ليس هناك في الدوّار امرأة واحدة تملك كلّ هذا القدر من الحلي. كان كلّما تجمّع لديه مبلغ من المال اقتنى لها قطعة أو قطعتين، أو حتى ثلاث إن كان المبلغ كبيرًا. يفعل هذا دون أن تطلب منه شيئًا. كان حريصًا على أن يكون لها كثير من الحلي، ليس لأنّه يحبّها ويريدها أن تكون زينة النساء فحسب، وإنّما لاعتقاده أيضًا بأنّه ليس هناك ما هو أفضل للمرء من أن يكون بحوزته قليل من الحلي تحسُّبًا لكلّ طارئ في هذه الدنيا المتقلّبة.. فسوق الذهب لا تكسد أبدًا. وباستطاعته أن يبيعه متى يشاء إن

احتاج إلى ذلك.

تُخرج كلّ ما في الصندوق وتكدّسه على الحصير. تضع السوار في معصمها وخاتمًا في كلّ واحدة من أصابعها. ثم تمدّ يديها وتشرع في تأمُّلهما. تبدو له مثل طفلة مستغرقة في اللعب. لم يعد يذكر كيف كانت وهي صغيرة. من المرجَّح أنّها لم تكن تختلف عن أغلب البنات في الدوّار. نحيفة مثل نبتة برواق. بشرة أقلّ بياضًا ممّا كانت عليه حين خطبها. وجه شاحب ضامر. شفتان متيبّستان مشقّقتان. أنف لا يتوقّف مخاطه عن السيلان. شعر منفوش يرتع فيه القمل. أظفار طويلة قذرة لا تقلّم بانتظام.

قرّر أن يتقدّم لخطبتها بعد لقاء بها عابر، حدث بالصدفة وفي وقت كان لا يزال فيه متردّدًا. لم يكن قد حسم الأمر بعد، ليس لأنّه كان قليل الإعجاب بها، وإنّما لأنّه كان يخشى مثل الجميع أمّها منوبيّة. فقد كانت في تلك الفترة أكثر شراسة وعدوانيّة. كان قليل الثقة بنفسه أيضًا، رغم أنّه كان أفضل حالاً من أغلب العزّاب. ولم يكن متأكّدًا من أنّها ستوافق. كانت قد تغيّرت كثيرًا، وأصبحت امرأة جميلة يتحدّث عنها كلّ الرجال بإعجاب. يذكر جيّدًا أنّ الوقت كان ظهيرة عندما التقاها.

ماذا كان يفعل آنذاك في الحقل الذي يوجد خلف بيتهم؟ هل كان يتجوّل أم يبحث عن شيء ما؟ كلّ ما يذكره هو أنّه كان وحده. بغتة، ألفى نفسه أمامها. لم يرتبك ولم يستغرب وجودها هناك، كما لو أنّه كان على موعد معها. هي أيضًا لم تضطرب كما لو أنّها كانت تنتظره. سلّم عليها، فردّت بحرارة لم يكن يتوقّعها. ومنذ أن التقت نظراتهما، أدرك أنّها لن ترفضه لو خطبها.

تضع كلّ الحلي في الصندوق وتُعيده إلى الخزانة. يفكّر أنّ ذلك اللقاء كان حاسمًا. لعلّه كان أهمّ حدث في حياته. هل كان سيجرؤ على خطبتها لو لم يلتق بها في تلك الظهيرة؟ أيّ منحى كانت ستتّخذه حياته لو لم يحدث ذلك اللقاء؟ هل كان سيذوق طعم السعادة التي يعرفها الآن؟ الله وحده علاّم الغيوب. لكنّ حدسه يقول له إنّ الأمور ستكون مختلفة لو تزوّج من امرأة أخرى.

ينتبه إلى أنّها قد انزلقت قليلاً في اتّجاهه وأصبحت أكثر قربًا منه، حتى إنّه يستطيع أن يلمس كتفها بمجرّد أن يمدّ ذراعه. ركبتاها مضمومتان، وأصابع يديها المخضّبتين بالحنّاء مشبوكة حول ساقيها، وشفتاها مزمومتان. من الواضح أنّ أمرًا ما يشغل بالها. لعلّها تذكّرت هي أيضًا ذلك اللقاء. ومن يدري! ربّما تفكّر هي أيضًا في أنّ حياتها ما كانت

لتصبح على ما هي عليه الآن لو تزوَّجت من رجل آخر!

الضوء ازداد كثافة في الغرفة. لا بدَّ أنَّ الغيوم قد أخذت تنقشع، وأنَّ الشمس على وشك الغروب. من عادته أن يخرج حالما يتوقَّف المطر عن الهطول، ويتمشَّى قليلاً حول البيت مستمتعًا برائحة الأرض والأعشاب والأشجار المبلَّلة. إنَّه يحبّ هذه الرائحة. يحبّ أيضًا أن يشاهد الأرض وقد اغتسلت وارتوت من الماء. لكنَّه لا يبرح مكانه هذه المرَّة، فالرغبة في البقاء بالقرب من مبروكة كانت شديدة لا تقاوم. يميل برأسه صوبها ويتشمَّم رائحة الحنَّاء التي لا تزال تنبعث من يديها.

ليلة الدخلة كانت تجلس في وسط الغرفة على حصير لا يختلف عن الحصير الذي يجلسان عليه الآن. عندما أوصد الباب وراح يدنو منها بحذر وتوجُّس، اخترقت ظهره قشعريرة باردة. لم يشاهد منها أيّ شيء، فقد كان كلّ جسمها ملفوفًا بسفساري أبيض. تنحنح مرَّتين معلنًا بذلك عن دخوله. لم تقم بأيّ حركة، ولم يبدر منها أيّ صوت. ظلَّت متجمِّدة في مكانها كأنَّها نائمة أو مخدَّرة.

بسمل في سرِّه ثلاث مرَّات وتوكَّل على الله. عرَّاها ثم انقضَّ عليها. تجنَّب النظر إلى وجهها خوفًا من أن تلتقي نظراته بنظراتها. لم يقل لها كلمة واحدة، بل ونسي أن يسلِّم عليها. لقد استولت عليه رغبة جهنَّميَّة في دخولها بكلّ ما لديه من قوَّة.

لا يدري كيف نسي أنَّ مصطفى نصحه بأن يتمهَّل وأن يحافظ على هدوئه، وأن يعامل مبروكة بلطف ورقَّة كي لا ينتابها الخوف. أراد أن يتصرَّف كالفحول.. فحدث ما كان يخشاه. وكلَّما طالت العمليَّة تفاقم خوفه وازدادت الأمور تعقيدًا. لو استطاع أن يحافظ على هدوئه وعمل بنصائح مصطفى لعالجها على الأرجح في المحاولة الثالثة، ولما اضطرّ إلى اللجوء إلى وزيره وسمح له بدخول الغرفة. الغلطة غلطته إذن. وهو المسؤول عن كلّ ما حدث في تلك الليلة.

تنظر مبروكة إلى ما حولها كمن أفاق فجأة من حلم. بعد لحظة، تنهض وتقف أمام الشبَّاك. دائمًا يشعر بمتعة من نوع غريب حين يتطلَّع إليها من الخلف، يعقبها في أغلب الأحيان إحساس يشبه الشعور بالإثم. إنَّه محظوظ بالزواج من امرأة مثلها. الحقيقة أنَّ كلّ شيء في حياته على ما يرام إلى حدّ الآن. تجارته في أحسن حال. وفلوسه كثيرة. ولا خطر عليه من الثورة. وسمعته لا تشوبها شائبة. كلّ الناس باستثناء الحسَّاد والأوغاد يحترمونه. فلماذا يزعج نفسه الآن بأمور قديمة؟

يتذكّر أنّه وعد محبوبة بشراء ما سيتبقّى لديها من الصوف. يشعر بالندم على أنّه لم يستشر مبروكة. يسألها وبصره لا يزال مركّزًا على جسمها:

ـــــ كم عندنا من بطّانيّة؟

ـــــ ثلاث..

ـــــ ثلاث فقط؟

ـــــ آ..

ـــــ لا بدّ من بطّانيّة أخرى..

يحسّ بارتياح عندما يراها تهزّ رأسها موافقة.

ـــــ سأشتري لك صوفًا.. ويمكن أن أشتريه من محبوبة..

ـــــ محبوبة!

ـــــ آ..

ـــــ محبوبة صارت تتاجر بالصوف؟

تستدير وتنظر إليه. يبتسم لكي يداري الاضطراب الخفيف الذي اعتراه.

ـــــ يبدو أنّها اشترت كثيرًا من الصوف.. وإذا فضل منه شيء سأشتريه..

تحرّك رأسها دون أن تكفّ عن النظر إليه. يفكّر في أن يروي لها قصّة لقائه الأخير بمحبوبة. غير أنّه سرعان ما يستبعد الفكرة.

ـــــ لكنْ، سأشتريه بعد أن تغسله.. اشترطت عليها أن تغسله.. أريد صوفًا نظيفًا.. تعرفين لماذا؟

تهزّ رأسها بالنفي.

ـــــ لكي لا أتعبك..

ينهض، ويقف خلفها تمامًا.

ـــــ قلت لها إنّك منشغلة دائمًا.. وليس لديك وقت لغسل الصوف في الوادي..

ـــــ ووافقت؟

ـــــ نعم..

يزداد اقترابًا منها. تغزوه رائحة شعرها. مزيج من رائحة الصابون وزيت الزيتون والعنبر. بعد تردُّد قصير، يمدّ يده ويضعها على كتفها.

ـــــ وأين قابلتها؟

ـــــ في الطريق..

ـــــ أيّ طريق؟

ـــــ الطريق الذي يشقّ الدوّار..

ـــــ متى؟

ـــــ قبل أيّام..

ـــــ وهل قالت لك شيئًا آخر؟

ـــــ لا..

تتحرّك، فتلامس صدره بكتفها. لم يشعر أبدًا أنّها قريبة منه وأنّه قريب منها إلى هذا الحدّ. ينظر إلى وجهها، فتخفض رأسها حياء. وللمرّة الأولى، يفكّر أن يقول لها إنّه يحبّها كما في الأغاني التي يستمع إليها أحيانًا في الراديو. لكنّ الخجل يمنعه من ذلك.

تميل منوبيّة على حامد المتمدّد على الفراش، ثم تهمس في أذنه:

ـــ وجدتها..

يفتح عينيه، ويسألها بلا اكتراث:

ـــ وجدت ماذا؟

ـــ الحيلة..

ـــ أيّة حيلة؟

ـــ نسيت؟.. الحيلة التي سنقتل بها مصطفى..

تتمدّد بجواره. وكما في المرّة السابقة، تدس يدها تحت ثيابه وتداعب بطنه.

ـــ حيلة لا يمكن أن تخطر بباله..

تنحدر يدها إلى أسفل بطنه.

ـــ وما هي؟

ـــ في الليل.. عندما يشتد الظلام.. وتخلو الطرقات والمسارب والحقول.. ويسكن كلّ شيء في الدوّار.. تذهب إلى بيته..

ـــ بيته؟

تمسك بعضوه وتشرع في مداعبته بطريقة لم يعهدها أبدًا من قبل.

ـــ آ.. بيته.. لكن، لا تدخل كي لا تراك محبوبة وتفسد كلّ الخطّة.. تختفي وراء شجرة بالقرب من البيت وتناديه.. لا تحمل معك أيّ شيء.. لا السكّين.. ولا الحبل.. سأتكفّل أنا بذلك..

ـــ ستكونين معي؟

ـــ نعم.. لا بدّ أن أساعدك.. عندما يخرج، قل له إنّك تريد أن تحدّثه في أمر هامّ وخطير.. وإنّك مستعجل.. كن هادئًا..

لا تتكلّم كثيرًا كي لا يلاحظ أيّ شيء.. هناك زيتونة كبيرة في الأرض المهملة القريبة من بيته..

ـــ أعرفها..

ـــ لا بدّ أن تذهب به إلى الزيتونة..

ـــ وإذا لم يصدّقني.. ورفض أن يذهب معي..

ـــ لا تخف.. سيصدّقك.. مصطفى يحبّك ويحترمك.. سأنتظركما

في الزيتونة..

ـــــ في الزيتونة؟.. ولكنْ سيراك..

ـــــ لن يراني.. سأختبئ خلف الجذع.. وعندما تصلان أخرج.. ونهجم عليه معًا في الوقت نفسه.. نبطحه على الأرض، ونقيّد يديه ورجليه بسرعة لكي لا يهرب..

ـــــ وإذا بدأ يصيح.. ماذا نفعل؟

ـــــ نضربه.. أو نسدّ فمه بحجرة.. أو نحشوه بالزبل والروث والبعر..

ـــــ نضربه؟

ـــــ نعم.. إنّه يستحقّ أكثر من هذا.. يستحقّ حتى أن نبول عليه..

يشعر بالاشمئزاز. وتتلاشى كلّ المتعة التي كان يحسّ بها، بل ويرغب في تخليص عضوه من يدها، وجرّ جسده في اتّجاه الحائط للابتعاد عنها. إلاّ أنّه لا يفعل. الحيلة التي عثرت عليها حيلة جهنّميّة حقًّا. وهي ستنطلي بالتأكيد على مصطفى. لا بدّ أنّها قد بذلت مجهودًا كبيرًا في البحث والتفكير لتصوّر حيلة من هذا النوع ووضع خطّة محكمة كهذه.

وأخطر ما في هذه الحيلة هو أنّها تستغلّ الحبّ الذي يكنّه له مصطفى، وتحوّله إلى مجرّد طعم فتّاك لدفع طريدتها إلى الفخّ.

ـــــ أنا متأكّدة من أنّ كلّ الأمور ستسير كما نريد..

ـــــ وبعد قتله.. ماذا سنفعل؟

ـــــ ندفنه..

ـــــ أين؟

ـــــ تحت الزيتونة..

ـــــ الزيتونة دائمًا عامرة.. الأطفال يلعبون هناك.. وبعض الرجال يجلسون تحتها.. سيلاحظون آثار الحفر.. وسيكتشفون الجثّة..

ـــــ لا ندفنه تحت الزيتونة إذن.. ندفنه في مكان آخر.. قريب منها..

ـــــ أيّ مكان؟

ـــــ لا تصعّب الأمور.. نختار مكانًا يبعد عشرين أو ثلاثين خطوة عن الزيتونة.. لا نبتعد كثيرًا لكي لا نضيّع الوقت.. لا بدّ أن نتخلّص من الجثّة بسرعة.. نحفر حفرة.. ندفنه.. ثم نسوّي التراب.. ونضع عليه قليلاً

من الحشيش والأعواد والحجارة والروث والبعر..

يصمت للحظة طويلة، ثم يقول:

ـــــ الأفضل أن نترك الجثّة تحت الزيتونة ليجدها الناس في الصباح..

ـــــ لا ندفنه؟

ـــــ آ..

ـــــ لماذا؟

ـــــ حرام أن يُدفن هكذا.. المسكين لا يستحقّ هذا.. لا بدّ أن يغسّل ويعطّر ويكفّن ويُصلّى عليه مثل كلّ عباد الله..

لا تتكلّم، وإنّما تكتفي بهزّ رأسها موافقة. يفاجأ حامد بموقفها. فقد كان يتصوّر أنّها ستخالفه الرأي كالعادة، وأنّها سترفض بشدّة هذا الاقتراح. والواقع، أنّها لم تفكّر في هذا على الإطلاق عندما وضعت خطّتها. حسبت حساب كلّ شيء، لكنّها نسيت هذه النقطة الحسّاسة. إنّها تخشى الله مثل كلّ المؤمنين. ومن المستحيل أن ترفض أمرًا كهذا. من المستحيل أن تحرم ميّتًا من أن يغسّل وخصوصًا أن يُصلّى عليه، حتى وإن كان هذا الميّت مصطفى.

ـــــ ولكن، سينكشف أمرنا عندما لا ندفنه..

ـــــ أمرنا سينكشف في كلّ الأحوال.. دفنّاه أو لم ندفنه..

يُدرك أنّ الفرصة مناسبة ليقول لها ما فكّر فيه منذ أن أخذت تتحدّث عن قتل مصطفى ولم يجرؤ على قوله أبدًا.

ـــــ لا بدّ أن نتحدّث في الموضوع مع البشير..

تسحب يدها فورًا. وتقول بلهجة جافّة:

ـــــ هل خرفت؟

ـــــ لا بدّ أن نستشيره..

ـــــ سيرفض.. وسيخبر مصطفى..

ـــــ البشير هو المتضرّر من الحكاية.. ولا بدّ أن..

تقاطعه بحدّة:

ـــــ انس البشير.. مصطفى صديقه.. ومن المستحيل أن يوافق على قتله..

يتذكّر المرّة الأخيرة التي رأى فيها مصطفى. عندما دنا من السياج

المحاذي للطريق، واكتشف أنَّ الشخص الذي كان يحزّك يده مشيرًا له بالاقتراب هو مصطفى، اعتراه ارتباك شديد. خشي أن تراه منوبيَّة وهو يكلّمه. ثم إنَّه شعر أنَّه غير قادر على أن ينظر إلى وجهه. ولحسن الحظّ، لاحظ مصطفى اضطرابه، فودَّعه وانصرف.

ومن جديد، تدس يدها تحت ثيابه، وتشرع في مداعبة عضوه. ثم تقول بلهجة مطمئنة:

ـــــ لا تخف.. الخطّة جيّدة.. وبحول الله سنقتله بسهولة..

ـــــ وكيف سنقتله؟

ـــــ نسيت؟.. في المرّة الماضية قلت لك كيف.. سنذبحه..

ـــــ ومن سيذبحه؟

ـــــ أنت..

ـــــ أنا؟.. لماذا أنا؟

ـــــ لأنَّك رجل..

يتخيّل نفسه وهو يمسك بالسكّين ويقطع عنق مصطفى، فتسري في جسمه قشعريرة باردة. لن يفعل هذا أبدًا. من المستحيل أن يقتل بشرًا مثله. وحتى إن قبل أن يشارك في عمليّة القتل، وهو أمر مستبعد جدًّا، فإنَّه سيكتفي بجرّ مصطفى إلى الفخّ. وربَّما يساعدها على ربط يديه ورجليه بعد طرحه أرضًا. لن يفعل أكثر من هذا.

ـــــ الرجل لا بدَّ أن يذبحه رجل مثله..

ـــــ لماذا؟

ـــــ لا يليق بالرجل أن تذبحه امرأة.. هل تتصوَّر ماذا سيقول الناس عنه لو ذبحته أنا؟.. إنَّها فضيحة..

ـــــ ولكنّ، أنا لا أستطيع أن أذبح بشرًا.. أنا لا أتحمَّل حتى رؤية الدم..

ـــــ كلّ حياتك وأنت تقصّ الكروز.. كلّ أولاد الدوَّار طهّرتهم.. والآن تقول لي إنَّك لا تحتمل رؤية الدم!

ـــــ هناك فرق كبير بين أن تختن ولدًا صغيرًا.. وبين أن تذبح رجلاً..

ـــــ ليس هناك أيّ فرق..

ـــــ كيف ليس هناك أيّ فرق؟.. أنت مهبولة..

ـــــ وأنت خوّاف..

ينفعل، فيمسك بيدها التي تداعب عضوه ويدفعها بشيء من العنف. تبتعد عنه وتقول بعد صمت قصير:

ـــــ الحكاية لا تدوم أكثر من رمشة عين..

ـــــ هل تظنّين أنّه عصفور.. أو حجلة!

ـــــ تضع السكّين على رقبته.. وبجزة واحدة تذبحه..

ـــــ لقد خرفت..

ـــــ سأختار أحسن سكّين..

ـــــ اختاري ما تريدين.. أنا لن أذبحه..

لم يعد في حالة تسمح له بأن يظلّ متمدّدًا على الفراش. ذهنه مشوَّش، وأعصابه متوتِّرة، ويداه ترتعشان من الانفعال.. يغادر الغرفة. البرد شديد. لقد نسي في غمرة اضطرابه أن يرتدي برنسه، لكنّه لا يبالي بذلك. يدخل الحقل، يعبره بخطى سريعة.. وعندما يبلغ حدّه، يتوقّف. يبقى هناك إلى أن يشعر أنّه لم يعد قادرًا على تحمُّل البرد.

يحس بارتياح خفيف حين يعود إلى البيت ويجد الغرفة خالية. يتمدّد على الفراش، ويغطّي ساقيه ببرنسه. الجولة الصغيرة في الحقل خفّفت من انفعاله. وفي اللحظة التي يغمض عينيه تدخل منوبيّة الغرفة.. تتمدّد إلى جواره، ثم تدس يدها تحت ثيابه، وتقول بلهجة من اتّخذ قرارًا هامًا بعد تفكير طويل:

ـــــ لا تذبحه أنت.. سأذبحه أنا..

لا يحتاج البشير هذه المرّة إلى خطّة ليطرح على مصطفى السؤال الذي يؤرقه منذ انتشار إشاعة الحانوت. كلّ ما ينبغي أن يفعله هو أن يلقيه بالهدوء الذي يناسب مقامه، وأن يصوغه بوضوح شديد، لكي يحصل على جواب دقيق لا يتضمّن أيّ غموض ولا يحتمل أيّ تأويل. مزاجه جيّد في هذا الصباح المشمس الدافئ، فقد اشترى قبل يومين ثلاث شياه بأثمان بخسة، لأنّ صاحبها كان مضطرًا لبيعها. والبارحة نام نومًا عميقًا لم تقطعه أيّة يقظة، ولم يتخلّله أيّ حلم أو كابوس. ومصطفى يبدو هو أيضًا هادئًا وفي حالة نفسيّة جيّدة. كلّ شيء على ما يرام، والوقت مناسب تمامًا لحسم المسألة. حالما يصلان إلى الأرض المهملة، يتوقّف البشير فجأة، ويلتفت إلى مصطفى الذي كان يسير خلفه.

ـــــ هل قلت لأحد إنّني تأخّرت كثيرًا ليلة الدخلة؟

تتّسع عينا مصطفى الذي تفاجأ بالسؤال:

ـــــ ماذا؟

ـــــ سؤالي واضح.. هل قلت لأحد.. لمحبوبة أو لإخوتها.. أو لأيّ شخص آخر.. إنّني لقيت صعوبات ليلة الدخلة.. وإنّني تأخّرت كثيرًا؟

ـــــ العن الشيطان..

ـــــ لا تتحدّث عن الشيطان.. جاوبني..

ـــــ لا.. لم أقل..

ـــــ احلف..

ـــــ والله العظيم لم أقل..

ـــــ احلف مرّة أخرى..

ـــــ والله العظيم لم أقل أيّ شيء..

يغمره انشراح عميق. ليس هناك ما هو أكثر دقّة ووضوحًا من هذا الكلام الذي ينفي نفيًا قاطعًا توزُّطه في إشاعة الحانوت.

لم يتردّد لحظة واحدة في أن يقسم بالله عندما طلب منه ذلك. ولم يبد عليه أيّ اضطراب، بالرّغم من أنّه طرح عليه السؤال في وقت لم يكن ينتظره، ودون مقدّمات أو تمهيد.

لم يشعر أبدًا أنّ مصطفى صادق في أقواله مثلما يشعر الآن. ولكنْ، إذا لم تكن لمصطفى أيّة علاقة بالإشاعة، فمن يا ترى يكون وراءها إذن؟

وللمرّة الأولى، يفكّر في المولدي. ولكن لماذا يفعل هذا؟ هل يريد أن ينتقم منه لأنّه باع له الحانوت بثمن مرتفع كما يقول، أم لأنّه ابتعد عنه كثيرًا بعد أن كان من أعزّ أصدقائه في أعوام الطفولة، وأصبح شديد الارتباط بمصطفى الذي كان يفضّله عليه منذ البداية؟ وربّما يريد أن يسيء إلى مصطفى من خلال هذه الإشاعة. قد يكون المستهدف الحقيقيّ مصطفى، وليس هو. المولدي ذكيّ وماكر. ربّما أطلق هذه الإشاعة ليورّط مصطفى، وليوقعهما في خصام حادّ يقضي على صداقتهما.

يطرد كلّ هذه الأفكار من ذهنه، ليركّز على ما استمع إليه منذ حين. لقد حدث ما كان يحلم به منذ أن انتشرت حكاية الحانوت. ما يهمّه الآن هو أنّ مصطفى أكّد له للمرّة الأولى وبوضوح كبير أن لا علاقة له بهذه الحكاية. عليه أن يطوي الآن هذه الصفحة المشؤومة في حياتهما. وحتى لو لم يكن مصطفى صادقًا تمامًا في أقواله، وهذا مستبعد جدًّا بعد قَسَمه، فقد آن الأوان لكي يضع حدًّا لهذه المشكلة. فمصطفى صديق مخلص ووفيّ ومهذّب وخدوم.. ولا بدّ أن يسامحه في يوم من الأيّام.

والحقيقة، أنّه لم يعد مستاءً منه كما كان في السابق. غضبه بدأ يخفّ في الفترة الأخيرة، وتحديدًا منذ أن التقى بمحبوبة على انفراد في طريق خال بعيدًا عن بيوت الدوّار وتطلّع طويلاً إلى نهديها البارزين تحت المريول، وتشمّم رائحة إبطيها المضمّخين بالعرق واشتهاها. منذ ذلك الوقت، استعاد شيئًا من ثقته بنفسه، وشعر أنّه نال قليلاً من التعويض عن الضرر الذي لحقه.

قبل أن يواصلا السير، يقول مصطفى باستغراب:

ـــــ وكيف أقول هذا الكلام؟.. هل تتصوّر أنّني مهبول؟

يلتفت البشير حوله كأنّه يريد أن يتأكّد من أن لا أحد يسمعهما.

ـــــ ما حدث تلك الليلة سرّ بيني وبينك.. والسرّ لا بدّ أن يبقى سرًّا..

يُدرك البشير أنّ الفرصة مناسبة لكي يسأله عمّا إذا كان قد رأى أو لمح شيئًا من أنوثة مبروكة أو ما يحيط به، عندما وقع على الحصير ووجد نفسه بين ساقيها. إلاّ أنّه لا يجرؤ على ذلك.

ـــــ لن يطلع من فمي.. حتى لو أعطوني كلّ ذهب الدنيا..

يعبران الأرض المهملة، ويتوغّلان في الدوّار. كلّ الأبواب والشبابيك مفتوحة لتمكين أشعّة الشمس الدافئة من التسلّل إلى داخل البيوت، والأطفال مبتهجون يلعبون ويتدافعون ويتراكضون في كلّ الاتّجاهات.

أمام بيت حامد، تجلس منوبيّة عارضة وجهها وساقيها الهزيلتين العاريتين للشمس. يسلّم عليها البشير دون أن يتوقّف، فتردّ عليه بحرارة. عندما يبتعدان عن البيت، يقول مصطفى:

ـــــ المسكينة.. كبرت..

ـــــ آ..

ـــــ لو ماتت لارتاحت.. ما زالت تقول هذا الكلام الفارغ.. عن حكاية الحانوت..

ـــــ كيف عرفت؟

ـــــ محبوبة التقتها في الوادي قبل أيّام..

حين يبلغان المكان الذي ينعطف فيه الطريق، يتطلّع مصطفى إلى حقل حامد، وتحديدًا إلى الركن المقابل حيث شاهده يتمشّى وحيدًا قبل بضعة أيّام. يقول وهو يشير إلى الحقل:

ـــــ رأيت حامد هنا..

ـــــ هو أيضًا كبر..

ـــــ كان مضطربًا..

ـــــ لماذا؟

ـــــ لا أدري.. كأنّه كان خائفًا من أن تخرج منوبيّة وترانا معًا..

يخرجان من الدوّار ويسيران صوب الشرق. لا وجهة محدّدة لهما. كلّ ما يريدانه هو أن يمشيا حتى يهدّهما التعب، وأن يظلاّ باستمرار قبالة الشمس ليستمتعا بدفئها وضوئها الباهر قبل أن تتسلّل إليها السحب وتحجبها. منذ أن انتشرت حكاية الحانوت، لم يعيشا لحظات صفاء وألفة مثل تلك التي يعيشانها الآن. البشير الذي دافع عن شرفه بالطريقة التي تليق بمقامه وحقّق هدفه، يحسّ الآن كأنّه وُلد من جديد؛ ومصطفى الذي أتيحت له للمرّة الأولى فرصة حقيقيّة لإثبات عدم توزُّطه في الإشاعة، يشعر أنّ البشير اقتنع بكلامه، وأنّه يصدّقه هذه المرّة.

يسيران على مهل. يتطلّعان إلى كلّ ما يحيط بهما من أشجار وحقول وأسيجة، كما لو أنّهما يشاهدان العالم للمرّة الأولى.

كانا صامتين، كأنّهما يخشيان إن تكلّما أن يفسدا هذا الوئام العميق الذي يحسّان به في هذه اللحظات النادرة. حين يبلغان مشارف الدوّار المجاور، يعودان أدراجهما سالكين طرقات أخرى. بين وقت وآخر، يتوقّف أحدهما ليتأمّل نبتة برّيّة على جانب الطريق أو ليلتقط عودًا متيبّسًا أو

ليراقب طائرًا جاثمًا على غصن شجرة.. لا يُبدي الآخر أيّ انزعاج أو تبرُّم. يتوقَّف بدوره وينتظر، ثم يستأنفان السير.

يمرَّان بالقرب من الحانوت. لم يحيدا عن الطريق، لأنَّهما كانا متأكِّدين من أنَّه مغلق في ذلك الوقت. وعندما يلاحظان أنَّهما يقتربان من بيت البزِّي، ينتقلان إلى طريق آخر خوفًا من أن يراهما البزِّي أو زوجته مريم، فيدعوانهما ليشربا معهما كأسًا أو كأسين من شاي «الصين» اللذيذ، أو «شاي ليبيا» كما صار يسمِّيه أغلب الناس..إنَّهما يفضِّلانه على كلّ أنواع الشاي.

وبالطبع، يرغبان بعد هذه الجولة الطويلة أن يترشَّفا كأسًا برفقة شخصين لطيفين وكريمين مثل البزِّي وزوجته. لكنَّهما يريدان في هذه اللحظات أن يبقيا وحدهما.

ينتبذان حقلاً بعيدًا عن كلّ الطرقات. يتسلَّلان إليه عبر فرجة صغيرة في سياجه، ثم يجلسان في أحد أركانه. يغمضان عيونهما، ويرفعان رأسيهما في اتِّجاه الشمس، ويكفَّان عن الحركة. يبقيان هناك إلى أن يحين وقت الغداء. ينهضان بتثاقل. ويتوجَّهان إلى البيوت بخطى بطيئة، كما لو أنَّهما لا يريدان أن يفترقا. وحين يقتربان منها يقول البشير:

ـــــ هل تذكر كلمة الديموقراطيَّة التي تحدَّثنا عنها قبل فترة؟

ـــــ نعم..

ـــــ الآن، فهمت ماذا تعني بالضبط..

يتوقَّف مصطفى متظاهرًا بأنَّه يولي المسألة اهتمامًا كبيرًا.

ـــــ قبل أيَّام، سألت عنها معلِّمًا في السوق..

ـــــ وماذا فهمت؟

ـــــ هل تذكر أنَّني قلت لك في المرَّة السابقة إنَّها شيء عن الحاكم؟

ـــــ نعم..

ـــــ الديموقراطيَّة هي أنَّ الحاكم يسمع كلام المواطنين..

ـــــ المواطنين!

ـــــ آ.. المواطنين..

ـــــ متأكِّد؟

ـــــ متأكِّد..

ـــــ وكيف يسمع الحاكم كلامهم؟

ـــــ يسمع كلامهم لمَّا يعمل انتخابات..

كان مصطفى قد سمع كلمة انتخابات عدّة مرّات من قبل. لكنّه نسي معناها الدقيق. ولم يعد يذكر أين سمعها ومتى. بعد تردّد، يسأله:

ـــــ ما معنى انتخابات؟

ـــــ ألا تعرف معنى انتخابات؟

ـــــ أعرف.. لكنّي نسيتها.. أنا لا أفهم في السياسة.. ولا أهتمّ بها.. لأنّ السياسة خطيرة.. رأيت ماذا فعلوا ببورقيبة لمَّا عزلوه وطردوه من قصره؟..

ـــــ الانتخابات هي أنّ الناس يصوّتون.. هل تذكر لمَّا كانوا ينصبون في البطحة في حفوز صندوقًا كبيرًا.. ويأمروننا بأن نضع فيه أوراقًا؟

ـــــ متى؟

ـــــ متى؟.. عملوا هذا عدّة مرّات.. في عهد بورقيبة.. وفي عهد الزين..

ـــــ تذكّرت..

ـــــ تذكر لمَّا كان العمدة يدور على بيوت الدوّار ومعه الحزاس.. ويقولون لنا لا تضعوا في الصندوق إلاّ الأوراق الحمراء.. أوراق حزب الدستور الذي كان في الحكم؟

ـــــ آ.. أذكر أنّ الأوراق الحمراء كانت أكداسًا.. والأوراق الأخرى كانت قليلة..

ـــــ الآن.. بعد الثورة.. لا أحد يجبرك على أن تضع الورقة الحمراء في الصندوق..

ـــــ ماذا يجب أن أفعل إذن؟.. أضع كلّ الأوراق؟

ـــــ لا.. تختار ورقة واحدة وتضعها في الصندوق..

ـــــ أيّ ورقة؟

ـــــ تضع الورقة التي تريد..

ـــــ حتى لو لم تكن حمراء؟

ـــــ آ.. حتى لو لم تكن حمراء.. أنت الآن حرّ.. وأنا أيضًا حرّ.. بعد الثورة كلّ واحد صار حرًّا..

ـــــ وحتى منوبيّة صارت حرّة؟

ـــــ آ.. حتى منوبيّة.. ومحبوبة أيضًا صارت حرّة..

ـــــ فهمت الآن..

بعد لحظة، يضيف بصوت واطئ كأنّه يخاطب نفسه:

ـــــ إذن، هذه هي الديموقراطيّة..

ينظر إليه البشير دون أن ينبس بكلمة.

لم تفتح منوبيّة فمها طوال الوقت الذي استغرقه تناول العشاء.

كان حامد قد لاحظ منذ أن غادرت الغرفة المجاورة والتحقت به أنّ أمرًا ما يشغل بالها. وضعت المائدة أمامه. وعلى غير عادتها، لم تشاركه الأكل. قرفصت بالقرب من الكانون وشرعت في إعداد الشاي. بين حين وآخر، ترفع رأسها وتتطلّع إلى الخارج عبر الباب الموارب. حين يفرغ من الأكل ويبدأ في ترشف كأس الشاي الأولى، تقترب منه، ثم تقول وهي تبتسم ابتسامة باهتة:

ـــ الليلة سنقتله..

يضع الكأس على الطبق، ويقول مندهشًا:

ـــ الليلة؟

ـــ آ.. الليلة..

ـــ أي بعد وقت قليل من الآن؟

ـــ آ.. عندما يشتدّ الظلام.. وتخلو الطرقات..

ـــ ولكنّنا لم نستعدّ بما فيه الكفاية..

ـــ لا تخف.. كلّ شيء جاهز..

تميل على الحصير. ترفع طرفه، وتتناول كيسًا صغيرًا كان مخبأً تحته، ثم تلقي به أمامه:

ـــ كلّ شيء هنا..

تمرّر أصابعها على الكيس، وتضيف:

ـــ الحبل الذي سنقيّد به رجليه ويديه.. والسكّين الذي سنذبحه به.. تريد أن تراهما؟

ـــ لا.. لا أريد..

ينتبه إلى أنّه لم يكمل كأسه، لكنّه لا يشعر بأيّة رغبة في ترشُّف ما بقي فيها. كيف يستمتع بالشاي بعد كلّ ما سمع؟ كيف تستسلم نفسه لهذه اللذّة وهو يعلم أنّ جريمة قتل ستُقترف بعد وقت قصير؟ ينظر إلى الكيس الملقى على بعد شبرين أو ثلاثة منه. وبحركة سريعة مباغتة، يدفعه برجله صوبها، وهو يقول بصوت يفضح اضطرابه:

ـــ القتل حرام..

ـــ آ..

ـــــ ربّي سيحاسبنا.. سندخل جهنّم..

ـــــ لا ندخل جهنّم..

ـــــ كيف لا ندخل جهنّم؟

ـــــ لا ندخل جهنّم، لأنّنا ندافع عن عرضنا..

ـــــ كلّ من يقتل نفسًا مؤمنة برينة يدخل جهنّم..

ـــــ مصطفى ليس نفسًا برينة..

بعد لحظات، يسألها بشيء من العتاب:

ـــــ ولماذا لم تقولي لي إنّنا سنقتله الليلة إلاّ الآن؟

ـــــ لأنّني قرّرت ذلك منذ وقت قصير..

ـــــ متى؟

ـــــ لمّا كنت أطبخ العشاء..

يحدّق فيها كأنّه لم يصدّق ما سمع، ثم يسألها:

ـــــ ولكنْ متى أخفيت الكيس تحت الحصير؟

كانت واثقة من أنّه سيطرح عليها هذا السؤال.

ـــــ لمّا أتيت بالمائدة..

ومن جديد، ترتسم تلك الابتسامة الباهتة على شفتيها.

ـــــ أخفيته وراء ظهري.. ولمّا بدأت تأكل، دسسته بسرعة تحت الحصير..

يشعل سيجارة، ويشرع في تدخينها بلهفة. بين وقت وآخر، يختلس النظر إليها. كلّ ما في حركاتها ونظراتها يوحي بأنّها تسيطر على أحاسيسها، وبأنّها مصمّمة على ارتكاب الجريمة في الوقت الذي حدّدته لها. من المؤكّد أنّها فكّرت مليًا قبل أن تتّخذ قرارها. ولكنْ لماذا اختارت هذه الليلة بالذات؟ لماذا تتسرّع إلى هذا الحدّ؟ ربّما تخشى إن تباطأت قليلاً أن يغيّر رأيه وأن يرفض المشاركة في الجريمة، فهي تعرف جيّدًا أنّه غير موافق على قتل مصطفى، وأنّه قبل على مضض وبعد إلحاح شديد أن يساعدها في ذلك.

يتذكّر الخطّة التي اتّفقا عليها قبل أيّام قليلة. يستعيد كلّ تفاصيلها، فيُدرك أنّها أشدّ إحكامًا ممّا كان يظنّ. ستنطلي الحيلة بالتأكيد على مصطفى وسيقع المسكين في الفخّ. لن يخطر بباله على الإطلاق حين يتوجّه إلى بيته في الليل، ويناديه ويقول له إنّه يريد أن يحدّثه في أمر

خطير أنَّه يخدعه ويدفعه إلى حيث ينتظره عزرائيل.

ينهض ويتوجَّه إلى الشبَّاك. يفتحه ويحدِّق في الظلام للحظة، ثم يعود إلى مكانه. يقول وهو يتحاشى النظر إليها:

ـــــ الدنيا باردة.. الأحسن أن نقتله في ليلة أخرى..

ـــــ سنقتله الليلة..

ـــــ سنموت من البرد..

ـــــ سنقتله بسرعة.. سنكون وحدنا.. الناس لا يخرجون في البرد.. وكلّ الأمور ستسير كما نحبّ..

بعد صمت، تضيف بلهجة مطمئنة:

ـــــ لا تخف.. ليس هناك ما هو أسهل من قتل بني آدم.. وعلى أيّ حال، أنا التي سأقتله.. أنت ستساعدني.. كلّ ما ستفعله أن تخرجه من الدار.. وتأتي به إلى الزيتونة..

يخطر بباله أمر لم يفكِّر فيه أبدًا من قبل، فيسألها:

ـــــ وماذا نفعل لو بدأ المطر يهطل؟

ـــــ لا شيء..

ـــــ نقتله تحت المطر؟

ـــــ آ..

ـــــ ونتركه في الخلاء والمطر يهطل؟

ـــــ آ..

ـــــ سيبتلّ..

ـــــ سيغسله المطر..

تتطلَّع إلى الخارج عبر الباب الموارب، ثم تقول:

ـــــ ربِّي سهل لنا الأمور، لأنَّنا على حقّ.. لو لم نكن ندافع عن عرضنا.. لو لم نكن على حقّ لما كان ثمَّة كلّ هذا الظلام.. منذ مدَّة لم أشاهد ظلامًا حالكًا كهذا..

ـــــ والحاكم.. نسيته؟

ـــــ لا.. ما نسيته..

ـــــ إذا ربِّي لن يدخلنا جهنَّم كما تقولين، فإنَّ الحاكم سيحاسبنا..

ـــــ وماذا سيفعل لنا؟

ـــــ يحبسنا.. ويضربنا.. وبعد ذلك يشنقنا..

ـــــ لا تخف.. لن يشنقنا..

ـــــ كيف لا يشنقنا؟.. نقتل نفسا بشريَّة ولا يشنقنا؟

ـــــ الحاكم منشغل بالثورة الآن.. ولا وقت لديه ليهتمّ بقتل شخص فقير في دوَّار بعيد..

ـــــ هذا كلام فارغ..

تنطوي على نفسها. يشعر برغبة في أن يقوم ويغلق الباب الموارب لكي يضع حدًا لهذا البرد الخفيف الذي يتسلَّل إلى قدميه. لكنَّه لا يفعل. يحكم لفّ البرنس حول ساقيه، وينطوي بدوره على نفسه. يعمّ المكان صمت ثقيل لا يقطعه سوى صوت تنفُّسه. بين وقت وآخر، ينظر إلى الخارج من خلال الباب ويرهف السمع. لا صوت. لا حركة. ولا حتى نباح كلاب. كلّ شيء ساكن. كأنَّ هناك تواطؤًا سرّيًا لاقتراف الجريمة. فجأة تنهض، تلتقط الكيس الذي وضعت فيه السكّين والحبل، ثم تتوجَّه إلى الباب.. ينتعل حذاءه بسرعة، ثم يقوم ويتبعها.

يجلسان متقاربين.

البشير يحتلّ كالعادة الجزء الأفضل من المكان. أمّا مصطفى، فقد تجاوز حدوده هذه المرّة واقترب منه إلى درجة أنّ كتفيهما تكادان تتلامسان حين يميل أحدهما صوب الآخر. إلاّ أنّ هذا لا يزعج البشير. بالعكس، ينتابه إحساس غريب ولذيذ في آن واحد وهو يشمّ الرائحة التي تنبعث من جسد مصطفى. الشمس التي أشرقت بعد وصولهما إلى المكان بوقت قصير بدأت ترتفع في السماء، والريح الباردة التي تهبّ من الغرب تحرّك بقوّة أغصان شجرة الخرّوب، والأصوات التي تتناهى إليهما من البيوت القريبة والحقول المحيطة بهما أخذت تتكاثر.

ـــــ هل تعرف من رأيت البارحة؟

يقول مصطفى، قبل أن يُخرج سيجارة من جيب سرواله. يراقبه البشير وهو يشعلها ويشرع في تدخينها، ثم يسأله بشيء من اللامبالاة:

ـــــ من؟

ـــــ حامد..

يستدير إليه البشير وهو يتراجع برأسه لتجنُّب دخان السيجارة.

ـــــ حامد؟

ـــــ آ..

ـــــ أين رأيته؟

ـــــ جاء إلى داري..

ـــــ إلى دارك؟.. في الليل؟.. وفي البرد؟

ـــــ آ.. لكنّه لم يدخل.. ناداني من بعيد..

ـــــ وماذا كان يريد؟

ـــــ قال إنّه يريد أن يحدّثني في أمر مهمّ.. بعيدًا عن الدار.. تبعته.. لكنْ بعد تسع أو عشر خطوات، توقّف.. هل تعرف ما هو هذا الأمر المهمّ الذي جاء من أجله إلى داري في ذلك الوقت؟

ـــــ ما هو؟

ـــــ سيجارة!

ـــــ سيجارة؟

ـــــ آ..

ينتبه البشير إلى أنّه نسي مرّة أخرى أن يشتري لحامد قليلاً من السجائر، ويصمّم على أن يفعل ذلك في أقرب وقت ممكن.

يلوم نفسه على هذا النسيان الذي تكرّر عدّة مرّات منذ أن انتشرت إشاعة الحانوت. ويشعر أنّه مسؤول بشكل ما عمّا حدث لصهره. فلو اشترى له قبل أيّام شيئًا من التبغ لما وجد نفسه مضطرًا إلى أن يغادر بيته في ليلة باردة كالبارحة، ويتوجّه إلى بيت مصطفى بحثًا عن سيجارة.

ـــــ مسكين.. كبر.. من أجل سيجارة يخرج في الليل والبرد.. ويذهب إلى دارك!

ـــــ أظنّ أنّه لم يأت من أجل سيجارة، كما قال..

ومرّة أخرى، يستدير إليه البشير ويثبّت بصره على وجهه.

ـــــ أظنّ أنّه أتى من أجل شيء آخر..

ـــــ أيّ شيء؟

ـــــ لا أدري..

ـــــ وكيف عرفت؟

ـــــ من صوته.. ومن حركاته.. لم يكن في حالة طبيعيّة.. أحسست أنّه أتى لأمر آخر.. كأنّه أراد أن يقول لي شيئًا خطيرًا.. ولم يقدر، فطلب سيجارة..

ـــــ لكنّ ما هو هذا الشيء الذي جعله يأتيك في الليل؟

ـــــ الله أعلم..

ـــــ ولماذا لم تسأله؟

ـــــ لم أرد أن أحرجه..

يقول البشير كمن يطمئن نفسه:

ـــــ لا بدّ أنّه تخاصم مع منوبيّة.. ربّما شتمته، فغضب وترك لها الدار.. وبعد ذلك، أتاك.. وطلب منك سيجارة ليطفئ بها غيظه..

كانت الشمس التي احتجبت منذ حين خلف غيوم داكنة قد ظهرت من جديد. يرفعان رأسيهما، ثم يغمضان عيونهما، ويعرّضان وجهيهما لأشعّتها. يظلاّن هكذا.. لا تبدر منهما أيّة حركة إلى أن تختفي الشمس مرّة أخرى. يلاحظ البشير وهو ينظر حوله أنّ مصطفى استفاد من اللحظة التي أغمضا خلالها عيونهما ليلصق كتفه بكتفه. صارت الرائحة التي تنبعث من جسده أقوى. يتشمّمها البشير قليلاً، ويقول:

ـــــ لا بدَّ أن أذهب إلى سوق مكثر..

ـــــ مكثر؟.. لقد قلت لي إنَّ فيها مشاكل..

ـــــ الأمور هدأت الآن.. ومن مدَّة لم أذهب إلى مكثر..

ـــــ وأنا أيضًا.. من عام ككح لم تلمس رجلي أرضها..

ـــــ هل تريد أن تذهب معي؟

ـــــ وماذا سأفعل هناك؟

ـــــ تتفسَّح.. تتفرَّج على الدنيا..

ـــــ ليس لديّ فلوس البوسطة..

ـــــ لا تفكِّر في الفلوس.. أنا أدفع لك تذكرة البوسطة..

ـــــ ومتى ستذهب؟

ـــــ بعد يومين..

ـــــ غدًا، أعطيك الجواب..

حين يملأن الجلوس ينهضان. يسيران مسافة قصيرة صوب الشرق، ثم يتوجَّهان إلى الخرُّوبة. كان العشب الذي نبت حولها قد نما وتكاثر وازداد ارتفاعًا بعد الأمطار الأخيرة. يتوقَّفان ويتأمَّلانه. منذ مدَّة طويلة لم يشاهدا عشبًا في مثل هذه النضارة. يطوفان بالشجرة بحثًا عن موضع يتسلَّلان منه إلى جذعها دون أن يدوسا العشب. لكنَّهما لا يعثران على أيّ منفذ. بعد تردُّد، يجتازان منطقة العشب وهما يخفِّفان الوطء.

التراب حول الجذع نديّ والهواء بارد. لكنَّ ذلك لا يحدّ من رغبتهما في الجلوس في المكان الذي كانا يلجآن إليه وهما طفلان حين يريدان أن يكونا وحدهما. يدفعان بأرجلهما ما تراكم على الأرض من أوراق وأعواد وحشرات نافقة، ثم يقرفصان مستندين إلى الجذع.

ـــــ هل تذكر عندما كنَّا نأتي إلى هنا.. في القائلة؟

يسأل مصطفى البشير بصوت واطئ.

ـــــ نعم..

ـــــ أحيانًا، كنَّا نطرد كلّ الأولاد.. ونبقى وحدنا..

ـــــ آ..

ـــــ هل تذكر ماذا كنَّا نفعل؟

ـــــ نعم..

ـــــ كلّ واحد كان يحفر حفرة صغيرة في الأرض..

يبتسم، ثم يضيف بخجل:

ـــــ ويتخيَّل أنَّها لبنت.. ويدخلها..

يبتسم البشير بدوره، ويسأله:

ـــــ هل تذكر عندما كنَّا نتفرَّج على أعضائنا ونقارن بينهما؟

يضحكان، ثم يصمتان من جديد. يتذكَّر البشير المرَّة التي قرَّرا فيها بعد نقاش طويل أن يطأ كلّ واحد منهما الآخر لاكتشاف هذه المتعة التي يتحدَّث عنها الجميع، ويقولون عنها إنَّها لا تشبه أيَّة متعة في هذه الدنيا. لكنَّهما عدلا عن ذلك، لأن لا أحد منهما قبل أن يكون أوَّل من يهب نفسه. وللمرَّة الأولى، تتملَّكه رغبة شديدة في أن يصارح مصطفى، وأن يقول له إنَّه كان سيخدعه لو وافق على ذلك، إذ إنَّه قرَّر ألاَّ يمكِّنه من نفسه بعد أن يطأه.. إلاَّ أنَّه لا يقول شيئًا.

للمؤلّف

روايات

جبل العنز، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٨.

صورة بدوي ميت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٠.

متاهة الرمل، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٤.

حفر دافئة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٩.

عشّاق بيّة، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٢.

أسرار عبد الله، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٥.

روائح ماري كلير، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٨.

نساء البساتين، دار الآداب، بيروت ٢٠١٠.

عواطف وزوّارها، دار الآداب، بيروت ٢٠١٣.

قصص قصيرة

مدن الرجل المهاجر، الدار العربيّة للكتاب، تونس ١٩٧٧.

امرأة الساعات الأربع، دار النورس، تونس ١٩٩٨.

ترجمة

مديح الظلّ، لجونيشيرو تانيزاكي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٨٨.